إسراء إمام

الفراش دومًا لثلاثة

قصص

إمام، إسراء

الفراش دومًا لثلاثة/ إسراء إمام .

القاهرة: روافد للنشر والتوزيع، ط1 / 2017.

158 ص ؛ 21 سم

1- قصص

2- العنوان

أ. المؤلف

رقم التصنيف: 01،813

رقم الإيداع: 2017/16102

ISBN: 978 - 977 - 751 - 335 - 7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

+2 0122-2235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: خالد السباعي

أوراق رسمية

يوم عطلة آخر تشعر أنه فى طريقه لوداعها منذ شروقه الضَجِل ...

ظللت منطقة من غرفتها المشمسة، وتجلست فوق فَرشة أفكارها الوثيرة. أمعنت النظر حول يومها الموشك على الأفول، وتدبرت أحواله التى لا تُنذر بخير. رمقت النهار المنطوى على نفسه، وأدركت تواطؤه على المتعة القريبة، والنور الرابض بعيدًا على أرض الحكاية الغريبة. فآثرت السلامة، ونجت قبل أن توغل بقدمها فى التمنى، استحضرت ثرثرة الحقيقيين عن ضرورة استخراج شهادة تخرجها، وهى التى تناست وجودها من الأساس بعدما التهت بوظائفها المتواضعة والجبرية فى سكرتارية الشركات الرخيصة. "ماذا يريدون الآن؟ أن أبنى بيتا من الدم واللبن فوق أرض نبتُّ منها، ومن ثم أهجره إلى منزلى الصفيح المهترئ؟!". تراجعت فكرتين إلى الخلف، وأرست خيبتها فوق صوت رأسها الممتعض وهى تقول "ما علينا، أظن أنه اليوم المناسب لإتمام ما يتوجب من هراءات".

ارتدت ملابسها وهواجسها المُحدقة، والخاصة بتحضير روح الماضى. كانت تعى أنها بصدد الذهاب إلى المقبرة التى أودعت فيها أحلامها البِكر، افتراضاتها الطِفلة، وخيالاتها

الصبية. دلفت إلى أرض التيه، ورمت نفسها فى حضن الشبح المزعوم لعله يكون أكثر رأفة مما تخشى. وعلى الأبواب، لمحت البوابات المُحصنة، حاجبة البقية الباقية من النور الذى كان يصاحب دخولها إلى مكان كليتها. اصطفت فى الطابور مع مثيلاتها الأصغر عمرا، والأفتح لونا كبياض صفحات نفدت من لطخات الحِبر. خمسة أعوام فارقة بينها وبينهن، إذا افترضت أنها سنتهن الأولى. اشتمت رائحة طزاجتهن، بدوّن كخضراوات منتعشة بقطرات الماء، متموضعة فوق طبق مُذهب فى عنجهية غاشمة، لا تعى أن مصيرها المضغ بين فكين عفيين. ربما تنتظر كل منهن مكانها المحشور بين الشفرات الحادة، متأهبة للطحن، لدرجة تدفعها لاعتبار استخراج شهادة التخرج الجامعية مجرد رفاهية، عبث يمكن تأجيله لمدة خمس سنوات.

زمجر الحارس فى وجهها الوديع، عندما اكتفت بإظهار بطاقتها كهوية:

- أين كارنيه الجامعة يا آنسة؟

نفثت بضيق من أراد تأجيل المشوار لخمسة أعوام أخرى:

- لست طالبة، لدى فقط بعض الأمور العالقة بمكتب شئون الطلبة فى كليتى.

أسهب موظف الأمن ليستعرض تفانيه فى تغطية مكانه:

- وهل لديك ما يُثبت؟

قذفت إجابتها كلعبة نرد أخيرة يقف عند بابها الحظ:

- لا

سهم قليلا، مال إلى تقمص دور المُشفق، وأزاح لها جسده المترهل لتولج بقدمها فى جنته الحصينة.

وطأت غريبة على أروقة كليتها، تلك الأروقة التى طالما لفظتها، ضنت عليها بدفء يتحاكى عنه الآخرون. منذ سنتها الأولى وهى شريدة بين ضيقها ومزقاتها. هذا المبنى الآنف كان أقرب إلى وخزة إبرة تلقتها فى قلبها كل يوم على مدار أربعة سنوات. علقم مر نُحتت طبقاته الواحدة بعد الأخرى فى سقف حلقها. فشق طريقه إلى روحها كمجرد دين دورى، توجب عليها سداده من عمرها بلا طائل.

وقفت فى استقبال الدور الأول كسائحة فقيرة، أتت لتُمضى عطلتها فى مبنى حكومى. استجدت ذاكرتها فلم تُذعن الأخيرة كالعادة، فَرَمَت بأسئلتها فى وجه الطُلاب "معذرة، أين مكتب شئون الطلبة"، وفى مكتب شئون الطلبة دلوها على مكتب إدارة الخريجين. فتوجهت منصاعة ورصت مقدمة حديثها أمامها، وضعته على مكتب سيدة تُشبه الكوبيبة، فأشارت لها على مكتب رجل مجاور أقرب إلى الجندوفلى، فلم يتأخر عن إخبارها بقائمة متطلبات إخلاء الطرف، سالت الكلمات من فمه بقوام مُعلب ومحفوظ، فأصابها بعض

الدوار، استسمحته فى وقت اسقتطاعى، وإستخرجت ورقة وقلمًا من حقيبتها، وبدأت فى لململة الأماكن التى تخرج من بين خياشيمه البحرية. تتملى وراءه، وتنخبط فى رأسها بكل مكان وآخر، فهى مازالت تتذكر أن بعض هذه الأماكن بعيدة على قدميها المنهكتين، وجسدها الشائب.

انطلقت من أقرب حلقة من حلقات البرم الذى ستبرمه اليوم، كخيط ضئيل مطلوب منه تكتيف عنق سترة صوف ضخمة. دلفت إلى باب مكتبة كليتها فى الدور الرابع، والمصعد كما هو متعارف عليه منذ أزمان معاشرتها الغابرة لهذا المبنى "للأساتذة فقط". جسدها بدأ فى التذمر، فضحكت ضحكة خافتة "ستخوننى من الآن، رحلتنا لم تبدأ بعد". أعادت الكرة ووقفت أمام المكتب الخطأ، فامتد الإصبع للتصحيح، ولهثت هى وراءه ككلب الريتريفر المطيع، قادها إلى سيدة تهاب الحديث وكأنه مدفوع، تقتصد فى كلمات الإفادة، وتُسهِب فى نبرة اللكز:

- دفعة كام يا آنسة؟
- تخرجت من 5 سنوات.
- وتذكرتِ الآن إخلاء الطرف !
- ....

نبرتها حادة عالقة فى أنفها، وعينها متوارية خلف هالة تهكمها:

- أريد جنيهين.

نبشت سائحتنا عن عملات فى حقيبتها بغير فائدة، فاضطرت لنزع فتيل قنبلة أخرى بإظهار خمسين جنيها فى وجه سيدة الامتعاضات، فنفثت الأخيرة بكلمات مُحتقنة مغمسة تأففًا:

- أريد جنيهين معدن.

توارت فتاتنا خلف حُمرة وجهها، وطاوعت خطواتها المضطربة فى غير وعى، ففطنت لحالها وهى تسأل الطلاب المتراصين حول طاولات القراءة "هل ثمة فكة خمسين جنيها؟". حبيبات العرق تتفصد من جسدها، منسوب الطاقة أشهر إفلاسه، مسحة غيبوبية بدأت تراود ذهنها، ترى ذاتها فى وجوه الطلبة القابعين على الكتب فى تباهٍ، وكأنهم يتشدقون بمنطاد على ارتفاع رؤية الكون برمته، تود لو تضرب كل منهم على رأسه بمطرقة "حسنا يا أطفال، لا تضيعوا أوقات لهوكم، لأن منطادكم مثقوب من الأسفل وستهوون قريبا، كم أود أن أرى وجوهكم وهى متمرغة فى التراب، وعيونكم مفقوعة بسخام الحقيقة" هكذا تمنت أن تخبرهم، ولكنها اكتفت بسؤالها "هل لى أن أجد معكم فكة خمسين جنيها". دورانها يبعث فيها الغثيان، وتركيزها بدا وكأنه يطوف معها حول اللاشيء. رأت وجهه، ذا الوجه المفرغ من الملامح، والحُلمى لدرجة التلاشى، دنا منها فى ستارهما المركون إلى جانب الواقع، محتفظا بوقفتها، ونازعا عنها سروالها، ولباسها الداخلى. واقعا على ركبتيه،

ومطلقا لسانه ليمسد مقدمة ما بين فخديها، احترقت وأنّت وفعصت أناملها بقبضتها، وبينما كانت تسيل رعشتها ممتزجة بمجرى دمها، لحقها بمس آخر، من طرف لسانه على البروز الناتىء قبل شفراتها، ومن ثم وطأ به الحواف، لمسات طفيفة متقدة، سرعان ما تحولت إلى مسحات مُلحة، ومنها إلى لعقات نهمة فضفاضة.

"يا آنسة ... يا آاآنسة"

انتشلها الصوت من بين كومة الطلاب المنكفئين على الوهم، وحَل عُقدة لفاتها المُهدَرة قبل أن تمتد إلى عنقها، وتشنقه. "يا آنسة سأعطيك ما تريدين، اقتربى". كانت سيدة من المسئولات، وجهها كالزهرة وصوتها كأيام عُطلة فى الجونة بعد أسبوع عمل شاق. مدت ابتسامتها لتحيط كتف الآنسة المنكمش وهى تقول "يبدو عليك الإرهاق"، ومن ثم دفست ذراعها فى رحم حقيبتها واستولدت حاملة النقود، وبعض الحلوى، "تفضلى هذه فكة الخمسين جنيها، وبعض الحلوى لهذا الوجه الممتقع".

وقّعت الحيزبون على إخلاء الطرف، وأرسلت بعض من الاستهجان بطرف نظرها المعوّج، تفادت الآنسة الشرر المتطاير من هذه السيدة اللاذعة لدرجة الحموضة، وتمنت لو تحتكم على مرآة كبيرة فى هذه اللحظة لتعكس عليها ما تجود به من تذمر، وتُخلفها وهى متحممة بجحيمه.

خرجت من المكتبة تلهث كمن اجتاز نصف رقمه القياسى لتمارين الصباح، ضربتها سحابة من الاشفاق على نفسها، ضحكت من التشبيه ضحكة انحشرت بغصة فى حلقها، فهى بالأحرى كمن تُدركه نصف موتة من عشر عدات للقفز بالحبل. جلست على أقرب درج مُهمَل، وسرعان ما تحولت سحابتها إلى غيمة كثيفة حجبت رؤيتها لما حولها، ثمة دموع تتساقط رغما عنها، تجهل سبب تدفقها، أينحت هذا السيل الغزير بقيتها ويتركها لعُريها، أم يغسل عنها وساخات مواجهاتها العالم. أسلمته ما بين فخديها، ضغطت نفسها على فمه، وأخذت تئن وتتمايل مع ايقاع لسانه الأفعوانى، صرخاتها تشطره نصفين، وتصب على لهيبه حرائق. يأكلها بجوع، لا يبعد برأسه عنها ولا يخف حتى من ثِقله عليها، ولكنه ما يلبث أن يتوغل أكثر وأكثر، يصول ويجول بشفتيه ولسانه وفمه، يقبل شفراتها، يلعقهم ويمتصهم بأكملهم إلى جوفه، يَشرِط، يُقطِع، يلتهم.

حلقها جاف كشفرة موس، أزاحت مجلسها، تاركة بعض من بقاياها على الدرج اليتيم لتؤانسه. واتجهت صوب كافتيريا تتذكر وجودها فى آخر الرواق. ابتاعت زجاجة صغيرة من الماء، أتت على نصفها، ومن ثم عاودت خط مسار رحلتها المزعومة. منحت قدميها لدرجات الطوابق الأربعة حتى وصلت إلى مكتب رعاية الشباب، طلبت إخلاء الطرف، فأجابتها سيدة امتلأت لشعيرات رأسها شرودا، "أين ورقة إخلاء طرف المكتبة؟"، ناولتها الآنسة الورقة من دون سؤال، فقلبت سيدة الغياب

الورقة ووقعت على ظهرها. توجست الآنسة من فِعلتها، فسألت "ألن يطلبوا ورقة مستقلة؟"، حركت السيدة رأسها نفيا من دون أن تنبس بكلمة، ومن ثم فردت جناحيها وحلّقت بعيدا، إلا من عيون بقيت مدقوقة فى جذر الأرض، محاوطة بهالات قد تكون من الزجاج أو الدموع.

خلعت جلدها الحكومى من مكانين حتى الآن، يبقى ثلاثة، أولهم قريب، وأوسطهم أبعد، وآخرهم كالضفة المقابلة من نهر عريض. حملت كُلها المتضاد، وصعدت طابقًا واحدًا آخر، إلى مكتب التدريب. التقط الرجل المسئول رأسه من فوق الورق المتموضع أمامه، ووهبها موافقة مجانية عما ستطلبه قبل أن تفكر فى التلفظ. نفض الكرسى المجاور له من سكتة الروتين الدماغية، ورش بعض اللطف على استجدائه لها بالجلوس، طاوعته وحطت نفسها على الكرسى، على الرغم من أن الرحابة غير المنطقة لا تُرضى مزاجيتها فى الأغلب. ألقت على مسامعه بغيتها، فابتسم واجتر غرزة الخيط الأولى من كنزة حديثه السميكة، التى اختار أن يغزلها بالقرب من مسامعها الآن، فى هذا التوقيت. مبدئيا، أخذ يسخر من الروتين الحكومى، ويُثنى على فعلتها فى تأجيل استخراج الشهادة، ومن ثم وخز حيز البُعد الطبيعى بينه وبينها بلسانه المعادل لإبرة الحياكة الطويلة الثاقبة، وسألها عن عملها، يومها. وحينها وضعت إصبعها على معقد نسيجه فعرقلت كرّ كلماته،

وعقدت انسيابية خيطه المتهدل كلُعاب لزج، سحبت من تحته ورقة إخلاء الطرف كمن يخلع ضرسه.

حايلت عزمها، دللته كرجل يرغب فيها، ومنحته بعض الغواية، فوهبها إغفالة عن ما تبقى من معتركها القادم، والأقصى شراسة. خرجت ساحة الجامعة، حاولت أن تستعيد خارطة الطريق للمكتبة المركزية، ومن دون استغراق استعانت بأقرب طالب مارق، دلها على الطريق الذى تعلم أن استطالته مجرد مقدمة لما ستختبره فى رحلتها إلى مكتبة كلية الآداب، ملاذها الأخير والأصعب منالًا.

حطات قدمها ركنت، وخّمت، وحملتها على البدء فى جرها، حثها على المضى عنوة. اللهاث يتربع صدرها، ودقات القلب متوالية كعداد لحظات العمر. نشوتها معه وجدت طريقا إلى السماء، ارتمت كقتيلة على فراش لم يكن موجودا من الأساس، هبط من النعيم متسللا فى وقته إلى رؤاها. أما هو فلحق بنومتها على بطنها، وضع جسده فوق خلفيتها، والتصق بعريها التام _المفاجئ هو الآخر_ التصاقا خفيفا، منعشا ومرتعشا. حرك أنامله على مؤخرتها، اشعلها بقبسات من جموحه ومن ثم وزع قبلاته على ظهرها، قبلات لحوحة خاطفة وثقيلة، نهمة وزاهدة. ومن ثم رفع نصفها الأعلى، هى منومة بين يديه كدمية، وهو متشبث بوضعيته خلفها، ضمها بذراعيه

ونقل قبلاته على عنقها، كتفها، أذنيها وجانب وجهها. ومن ثم فتح ساقيها مجددا ووضع إصبعه بداخلها.

قطرات العرق تكاد تغرقها. تذِلها وقفتها أمام موظف المكتبة المركزية فى طابور تجهل أسبابه، وحينما وصلت لنهايته، ما كادت تنطق بكلمة "إخلاء طرف" حتى خبطها الرجل فى وجهها "عشرين جنيه لو سمحتى". أعطته النقود، فأعطاها خلاصها الذى لم يكن بالضرورة يخص اسمها هى، أو هويتها هى. وإنما مرتبط شرطا بقدرتها على دفع العشرين جنيها.

أهالت التراب على الوجه القبيح المتخيل لطريق مكتبة كلية الآداب، وخاضت من دون تردد بمشيات لا بأس بها. وبعد دقائق أكلها التعب وشرب منها، وضعت هيكلها النحيل على أقرب مقعد، وبكت، بكت بحرقة كل نبضة ألم فى قلبها ودمها، وكالعادة بللت ريقها بدموعها، وعاودت المسير. كلما ظنت أنها قطعت شوطا يحتسب لها، يتضح لها هذيانها، إنها كمولود حضانة يطمح فى شهادة الجامعة، "شهادة الجامعة" برقت الكلمة فى رأسها، فتفوهت من تحت جلدها بسباب قبيح وقذر، أمهلها ومضة راحة. وحينما بلغت المكان، لم تقل إلا "إخلاء طرف"، لم تُدخلها فى أى جملة، أو توضحها، وكذلك فعل المسئولون تحت شباك "إخلاءات الطرف" الذى أشار لها الحارس عليه، "عشرون جنيها"، قالوا فدفعت وأحصت ورقاتها بغية لذة إتمام المُهمة المُوكلة إليها من ساعتين فاتوا.

عادت إلى مكتب إدارة الخريجين، نيمت الوريقات على خشبة مكتب الجندوفلى الذى كان. فارتعد لوجهها الكَبِدى النيئ، "ماذا حدث لك؟، اجلسى من فضلك". جلست، تجاوزت عباراته واستفهاماته، وشحذت تركيزها على ملء استمارة التقديم على الشهادة، فتحت قلمها، وراحت تخط بياناتها أمام خانات الحِبر الكثيف. أخرج إصعبه من داخلها، ومصه بتأن، فصرخت، عاود إيلاجه فيها ومن ثم أخرجه ومصه، فتقطعت صرخاتها مبحوحة عفية عليها أكثر مما يجب، أعاد إصبعه عندها ومسح به على حواف شفراتها من أسفلها ومن فوقها، وفوق النتوء القابض على انفجار قريب، ومن ثم أخرجه ومصه. فتوانت أناتها بلا هوادة، بينها وبينه، بينه وبينها تأوهات ومذاق ولذة تبدأ من حيث تبلغ ذروتها.

وصول غير معلن

(1)

الآن هى لا ترى. كفيفة مسكينة، تعاودها نوبة العمى، يقيء قلبها مذاق الفرح، وتَرشح روحها كمدا. درجة حرارة جسدها صفر، ودموعها تفيض فتسد فم شغفها، فيكُف عن التوق، ويعتزل الشهوة. صبّحها الخمول فى أول يومها، فعزمت على مناطحته، وألقت بنفسها فى أقرب حافلة، لا تعرف لها وجهة، ومن ثم هبطت فى مكانٍ تجهله. ولكنها عادت كمن لم يذهب.

تستنزفها هذه الحالة، تأكل منها، وتأتى عليها. تضعها فى منتصف طريق تَهَدّم من حوله العالم. يُمدِد سعة السواد المُحاوِط بها، ويجور على حقها فى رؤية الأبيض. كل الأشياء حينها تبدو كشِراك، العمل، والعمر. القدر، والسعى. الوجود، والموت. ليس ثمة منفذ، المؤديات هى ذاتها المترتبات. والنشوة لن تُبلَغ أبدا.

هالتها شبحية أفكارها، بكت من جديد. ارتمت على الفراش، ولم تأبه بثيابها المنفرطة بعبث. أطفأت النور، دفنت رأسها فى الوسادة، وتبللت بدموعها. أدارت نظرها فى الناحية

المغايرة، فاصطدمت عيناها بتكوين غامق، ينتصب بثبات فى الفضاء المظلم قبالتها. تجمدت هى ودماغها لوهلة، ومن ثم ضربتها فكرة واحدة واضحة، حثتها على أن ترفع زر الإضاءة تارة أخرى. فعلتها بحركة خاطفة، فإذا بها تراه جليا. جحظت عيناها، وتمرغت روحها فزعا، طوّعَت كل ما فيها ليصرخ، انحبست فى استغاثاتها، ولم تمت من رعبها، بل ماتت فيه.

(2)

أسبوعان مرا على الفاجعة، العقاقير الطبية ترفرف حول نومتها، وكفوف المُبَارَكين من العائلة وغيرها انحفرت على جبهتها. دعوات، تعاويذ، وصفات طبية وشعبية، لا يفقه شيئا مداواتها من طيفها المُذيّل فى طرف ثوبها أينما ذهبت. هذا الشيء المشابه للإنسان فى صورة رجل، مرقت الوسامة أمامه ولن تبرح مكانها.

يوم الظهور الأول، هرعت إلى غرفة والديها، أخبرتهم برؤياها، ومن ثم عادت بهم إلى غرفتها، فوجدته مازال واقفا وكأنه الحقيقة الوحيدة المؤَكدة لها فى الحياة. أشارت نحوه، دلتهم إليه، ولكنها ظلت وحدها من تراه، وكأنه خُلق ليلائم قدرتها هى على الإبصار. لم يدحض أحدهم خَبرَها، فزعوا من هذا العفريت الذى وضع ابنتهم فى خطة أولوياته. الطب قال إنها حالة نفسية، لن تزول إلا برغبة المريض ذاته، ولكن ليس ثمة مانع من إمداد يد العون له بالأدوية الملائمة. بينما أفتى

أهل الذكر بأن الأمر لا يخلو من مس شيطانى أو شيء سحرى فى أقل الأحوال. فغُلقت الأحجبة، وتُليت تراتيل الحماية من دون طائل.

نامت، ونامت، ثم نامت. النوم مهربها الوحيد، حينما ترخى جفنيها، يذهب عنها، يفارقها، ويمنحها خيالات مُستَرَقَة من الظلام، تخلو من وجوده. وفى وقت يقظتها، تدير رأسها عنه، تحيد عن عينيه المتأهبتين لقنصها. هذا الصنم الميت فى وقفته قبالتها، ما الذى يغويه فيها، لماذا لا يقربها، إما أن يتمادى فى أذاها، أو يطلق سراحها.

قالت لها صديقتها فى مرة "إن لم يسعك الشفاء منه، ستعتادينه".

هل لها أن تألف تلصصه عليها، تفّرغه لها. إنه يراقبها كمن يتغذى على مرآها. مخيفة حدقته المنغلقة على اتساعها. ومؤرّقة وقفته الغافلة على الرغم من يقظتها. يبقى فى وجود الآخرين أو عدمه. فى ضجتهم، وصمتهم. زعقاتهم، وانخراسهم. يتبدى كتمثال يونانى عريق، يشع ألقا وجاذبية. ولكنه يخبئ سراً لا يسعه البوح به، ليس أبداً وإنما فى الوقت الذى ينتقيه.

على كل حال، هى الآن تنتظر. تختلس منه بضع لفتات، وفى أوقات أخرى مشاهدات. باتت تستمد شيئًا من القدرة، مستبقية عينيها فى عينيه لوهلات. تلفها الرهبة حينا، وحينا أخرى يجترها الفضول. تخلت عن نوم الليل والنهار، وعادت إلى

دنياها على استحياء. لم تعد تحكى عنه، ولم يعد الآخرون يذكرونها به، وكأنهم يعلمون أنه لم يرحل، وإنما هى من غضت الطرف.

وبين هذا وذاك، بقى هو كحيوانها الأليف الذى لا ينام أبدا.

(3)

ابتاعت حفنة من الأحجار الجديدة، زاد عملها وقوته، حيث تُشّكِل منهم الكوليهات، السلاسل، والسوارات التى يثنى عليها الآخرون، ويتناوبون على شرائها منها بالسعر الذى تحدده، وفقا لما يجارى أثمان السوق. مهنة بسيطة، ولكنها ليست هينة كما تبدو. تحتاج لمثل مثابرتها، ذوقها، وموهبتها فى ضبط مكيال التفرد. منافسوها كُثر، ولكن قدرتها على التجويد دون المغالاة فى السعر، لم تعطِ مجالا للمقارنة.

تحب ما تعمله، تشعر وهى بصدد مزاولته أنها تبلغ ذروة الكمال. ولكن نجاحها، وإشباع طاقتها الإبداعية، لا يعيناها على تخطى تلك النوبات، نوبات الكآبة الساكنة فيها عنوة.

تلك التى عادت لمهاجمتها، مُنحّية قصة الطيف من حساباتها، منتهكة هالته المُرافِقة، وكأنه لا يعنيها فى شيء.

كالمعتاد، خرجت صباحا، عاقدة نية العمل على جبينها، لعلها تجفل وتجد خلاصها. طافت شوارع المُعز، خان الخليلى،

والغورية. كان هو معها، ترمقه من حين لآخر، يقف جوارها وهى تعبث بكومة الأحجار، وتنتشل بعضها لتفحصه. انتقت ما يكفيها، وفرحت بما بقى فى حوزتها. ولكن سعادتها، لم تدم. بقيت لتُسكّن ما فيها لفترة وجيزة، ومن ثم غادرتها بغير وداع..

لم ترفع رايتها البيضاء، بل جلست فوق عنق يأسها، مستأنسة بضوء نافذتها المُقربة إلى قلبها. أخذت تغزل كنوزها، كيفما اشتهت نفسها. تعافر موجات العتمة السمينة، تدفع بها إلى الجحيم حيث مكانها الحقيقى. ولكن سرعان ما تهاوى كل شيء، انغلقت طاقة النور، وزحف الظلام إلى نفسها، فحجبت عنها الرؤية، وضيّقت سعة نَفَسها. لفظت كل شيء، اهتاجت، وانطفأت قسماتها. أطرقت، توالت صرخاتها المكتومة، ومن ثم دمعت. أبصرته أمامها، يقف بلا حراك، ويحدق بها فى جمود.

تفكرت من قبل فى أن تلمسه، تستحضره من عالمه الآخر، وتحثه على التورط مع المحيط الذى لا يتوانى عن خرقه، تُحفزه لكى يتخلى عن جُبنه إن كان يخافها أكثر مما تخشاه. وتفتح له بوابات الدخول إليها بحق. ولكنها كانت تتراجع، تتوجس من ردة فعل ما ستُقدِم عليه. يعيقها حذرها، وينفخ فى خيالاتها، وكأنها بلمسه فقط ستتماس مع تكوينه، وتبدأ رحلتها التى لم تبدأ معه. وما أدراها إن كان هذا السفر آمن، أم جالب لما لا يجب أن يأتى.

ولكن ثمة ما يهمس لها الآن بأنها قادرة على فعل ذلك. فأمانها لم يعد يفرق عن خطره شيئا. عيشها تعجبه الصعلكة مع جمالية اللحظة، فى الوقت الذى مزع فيه أوراقه الرسمية، ولم يعد وافيا لأى اتفاقات مع السعادة طويلة الأجل. إن الوقت يأكلها، يمضغها على مهل، ولا يجود عليها باليسير منه. إذن، فما المانع من المجازفة، لن تعيبها ولا تُعييها. ستمنحها قبلة حياة إضافية، ومهما كانت الوجهة التى ستلقى بها ناحيتها. لن تكون أكثر وحشية من تلك النوبات التى تطاردها.

دنت منه ومدت أناملها، حطت بهما على ملابسه التى لم يتأتى له الظهور بغيرها طوال المدة الماضية. عيناه تتحركان معها، تظِلانها بينما تدفس أصابعها فى صدره، وتحِف بها معطفه الثقيل الأزرق، قفزا إلى قميصه الرمادى. تململت، وسحبت يدها منه، لم يأتِ ومن الواضح أنه لن يفعل. مكثت منتصبة أمامه، تتأمل صحو عينيه، نظراته التى لم تنم أبدا، والتى تميزها، تحكيها وتحاكيها، ولكن فى الوقت ذاته لم تنّولها منها كلمة. شيء ما أثقل على صدرها، فأطرقت تجرجر جسدها المُنهك إلى الفراش. تمددت، ورأت كل شيء من حولها مرتديا ثوب الدموع. دارت رأسها وتقلبت معدتها، فمضت تبحث عن مسكن الآلام بجوارها فلم تجده. تذكرت أنه فى الغرفة الأخرى حيث كانت تعمل، وهى واقعة فى بركة من الوهن لن يسعها أن تخرج منها ساقا. فتناست، وأغلقت جفنيها متمنية ألا تفتحهما أبدا. وما إن غابت، عادت. حينما شعرت بيد تنبهها، فرأته

أمامها، يمد لها ذراعه بشريط المُسكِّن. انتفضت، ولكنها جاهدت لكى لا تفزع وتُفزعه، كمن يراقب أنفاسه حتى يحتفظ بوقفة طير جميل على شرفته لأطول وقت ممكن. ضحكت بريبة وهى تقول "إذن، أحتاج لكوب من الماء أيضا". وما إن أتمت جملتها، حتى انوجد كوب من الماء أمام عينيها، مُعلقا فى الهواء، ينتظرها لتأخذه. فصرخت ملتاعة، وقفزت من هول المفاجأة إلى ركن فى الحائط، تفوهت بلا وعى:

- من أنت، وماذا تريد منى؟

بادلها النظر فى اضطراب وتردد، لا ينفى بعضًا من الجمود والمثابرة. فعاودت تسأل بنبرة مرتعبة:

- من أنت؟

تحدث أخيرا، صوته هادئ مطمئن، رجولي أجش، لا يخلو من هدهدة:

- لا شيء

التقطت بعض من أنفاسها، وهى تقول:

- كيف ذاك.

فبادرها:

- ستهابيننى أيّما كنت.

ابتلعت ريقا غليظا، ومن ثم قالت بلسان مثقل:

- هل أنت جِن؟

يبتسم، ومن ثم يجيب:

- لا

تتفكر، ومن ثم تعلو بصوتها استفهاما:

- قرأت ذات مرة عن الأطياف، الأرواح العالقة التى يحجبها عنا الزمن، هل أنت واحد منهم؟

تنفرج ابتسامته، ومن ثم يجيب:

- لا

تهدأ قليلا، وتطرق بابا للفضول من جديد:

- ملاك إذن؟

يتشبث بنفيه:

- لا

تلحقه باستجواب آخر:

- خيال مريض يصاحبنى؟

يرد لها سؤالها:

- هل تشعرين بالمرض قريبًا منكِ؟

تجفل، ومن ثم تتكلم بنبرة واطئة:

- لا .. (تصمت قليلا) لا أعلم.

يدنو منها، ومن ثم يقول فى يقين:

- لست مجرد صورة من خيالك، لا المريض ولا المُعافى.

تفرط عقد ذهولها، وتبدأ حديثها من عند آخر حباته المنفية وحيدة بعيدة:

- حتى اللا شيء يكون له هوية!

يفرش إجابته بصوت مطمئن:

- هويتى فعلى.

ترمى سؤالها فى وجهه بريبة:

- وماذا فعلت، منذ خايلنى حضورك حتى الآن؟

يبادرها، منسالا لا يقف عند كلمة:

- لا يجوز الفعل إلا بالسماح والرضا، وفى الأيام الماضية لم يكن بينى وبينك سوى الخوف.

كلماتها مغمسة بأفكار مشعثة القوام، مهلهلة القامة:

- إذن، ماذا تنتوى فعله؟

يتبع خطى سؤالها بإجابة رشيقة مُشبِعَة:

- الفعل لا يُقال.

ندهها الشرود، تمشّت معه حتى حافة الفراش، ومن ثم تمددت متفوهة بفم نصف مفتوح:

- أنهكتنى أيها الغريب.

وهن غطاء عينيها، وارتخى بينما كانت تقول:

- الآن عليّ أن أنام، الأصدقاء فى أوقات كهذه يستودعوننى لكى أنفرد بلحظتى، أما الأعداء فيفسدونها. فماذا أنت فاعل الآن، لست من الحزبين فى كل الأحوال.

يحط جسده جلوسا بجانب نومتها، مترنما وكأنه يهدهدها:

- الوداع، الوَحشَة، التململ، الذهول، وغيرها من المشاعر وجب عليك أن تُنحيها فى التعامل بيننا.

غامت صورته فى عينيها، بينما تخدّرت كلمتها:

- من أنت، حبيبى المفقود؟

ومن ثم نامت عيناها بين الجفون، فهمس هو بصوت سيخطو إليها على قدمي حُلم:

- حبيبك الحق، قد يضل طريقه إليك لمرات، ولكنه أبدا لن يفقده.

(4)

هاتفتها اليوم إحدى زبوناتها، أثنت على القطعة الأخيرة التى ابتاعتها منها. أخبرتها أن ثمة شيئا تغير فى تصاميمها، تنطقت وكأنها تقرأ الطالع "منذ شهور، يراودنى شعور مُلح، بأنه كلما اقتنينت سوارا، أو رابطة عُنق من عمل يديكِ، أجد فيها من قمساتى، وكأنك رسمتينى فيها، وأعدتيها إليّ، لكى أضعها عنوانا يدِل علىّ، فوق جسدى".

أنصتت، واستحضرت الحالة التى باتت تستحوذها وهى تعمل، خفيفة، مُسافرة، تحمل فى حقائبها هِمَّة، صبر، ابتسامة، ورجاء. وقد أفرغت حمولها من الألم، الخوف، وسوء الظن. تحررت، فلم تعد تجرجر أعوام صمتها فى ذيل أناملها، بينما تهادت بالنجوم وهى تُحيِك قطعها الفنية. فبدت قادرة على الرؤية، كشوّافة أصيلة، ولدت لتُبصر.

تناست منذ أمد أنه موجود، بينما أصغت له السمع بقلبها وعينيها، مرتشفاه على مهل، من دون الإمعان فى النظر. لم تتمادى فى مناقشته عن هويته ثانية، بينما انغمست فى حياتها بمعزل عن دهشتها منه. عاشت به، وكأنه قُبلة حياة لجسدها المتقطعة أوصاله، ونفخة بعث فى روحها الراقدة. لم يَحولِها عن ما حوّلها، ولم يقف عائقا بينها وبين نفسها. مصاحبته لها بدت طبيعية، وكأنه قطعة منها، تخبئها ردماً وقتما تريد، وتعريها وتقف قبالتها حينما ترغب. ولكنها أبدا لم تكن بعده،

كما كانت قبله. ظِله حوّط عليها، وأهداها وقتا مستقطعا من العالم، استراحة كان من الأوجب لمثلها أن ينالها منذ دهر، وإلا ستُغتَال أنفاسه عنوة وهو فى منتصف الرحلة.

سألته مرة "هل يرانى الآخرون وأنا أتحدث معك". فأجابها بإقرار حاد "تأكدى أنه لا". لم تركض حينها خلف التفسير، فقد حجبت عقلها فى قلبها، وطوته فى روحها، وما إن قامت بهذا حتى شعرت وكأنها امتلكت عقلا بحق. له رجاحة حكماء الأساطير، وعيون رحالة الكُتب.

كان يوعز إليها بأخبار وجب قولها، يميل عليها بنبأ سوء لا بد تفاديه سواء لها أو لمن لها. فتُنذر أختها من رحلة سفرها القادمة، وتُنبه صديقتها عن مكيدة العمل. الكل فى البداية سخر فى نفسه منها، تجاهل عِلمها ولم يأخذه مأخذا يستحق. ولكنهم سرعان ما اصطدموا بحقيقة تأويلاتها، ورؤاها. والاستهزاء استحال لخوف، وتمادى الظن بخصوص المَس الذى أصابها. كُثُر من معارفها تحاشوها، وانتظروا أعراض استحواذ الشيطان على جسدها. ولكن العرض لم يبدأ أبدا، لم يستغث أحد أفراد اسرتها حول غرابة أطوارها، من قواها الخارقة، تشنجاتها وتخشباتها، من لبوثها صامتة مُحدقة فى الفراغ، وأخاديد الدماء الرفيعة تنهمر كالدموع من عينيها. طالت فترة التوجس، ولكنها انمحت كأن لم تكن. التف حولها

الغريب والقريب، يسألها معرفتها، ويتوضأ من نورها وضوءا طهورا، فيه من رائحة الله.

كلامهما لم يمتد لحديثٍ، وحديثهما لم يكن ثرثار الكلام. تبادلا الأفواه بنطقٍ قليل، وأحلَّا القلوب مكان الألسنة. وفى يوم كانت فيه وحدها معه فى مكانٍ تطل عليه الطبيعة، هفها هوى له، فسألته:

- تُحبُّنى؟

لم يجب ولم يوارب نظرته المُرسَلة، فعقدت من صمته سؤالا آخر:

- لماذا تمثلت لى بهذه الهيئة التى تطربنى فى الرجال؟

فبادرها:

- لا حيلة لى فى مظهرى.

دنت منه، وانتوت لمس الرجل الذى يعجبها فيه، رد يدها مبتسما فى حنو. فاستفهمت بفحيح أنثى:

- تُحِبُّنى؟

لهث ليجيبها:

- أحبك.

فالتهبت نبرتها:

- إذن، لماذا لم تقربنى أبدا؟

لاحقها:

- أنا قربك دوما.

فنفت إجابته متلهفة:

- لم تقرب جسدى.

فأعاد لها سؤالها مُجابًا:

- لأننى أحبك كحب نفسك لك، فهل يجوز لنفسك أن تقرب جسدك؟

تفكرت قليلا، ومن ثم فرجت فمها مترددة:

- ولكن أنـ....

فرق ما بين كلماتها، مقتطعا مجازها:

- دعكِ من عقلك القديم، لم يعد صالحا للاستخدام بعد.

ضربت على رخوة جسدها، ولملمت أطرافه التى لانت، ومن ثم قالت فى نصف تراضٍ:

- سأعمل على ذلك يا سرى المُزعج الطيب.

وغطت هيجان أفكارها وجسدها بالنوم، ولم توقظهما وهى معه ثانية أبدا.

(5)

مرقت السنوات، وعملها يتسع وِسِع أعوامها الذاهبة، ونظيرتها التى ستأتى. اسمها بات شائعا، مُرَوَّجًا من تلقاء نفسه، بدت أشهر من إنتاجها، برغم جودته وتفرده، وإنما غرابة الحواديت المحكية بشأنها، ضاعفت من اسمهما، وأضفت أثمانا على أسعارها. الطبقة الراقية بالذات، تكاثرت على بضائعها، واحتشدت على بابها، تهافتاً على التهافت المعروف عنها. رحبت بالكل باعتباره جالبا للمال، ولكنها ظلت تُقدر الجزء الذى يقصدها لحرفتها، ممتنا لدراية يدها وجبينها. الزبائن حجت إلى بيتها حِجًّا نصف مبارك، أعدادهم وفرت، ونواياهم تعددت، بينما هى ظلت متشبثة بأناملها وحيدة، عاملة بكد، وقادرة على أن تسد أفواه الطلب دون مساعدة. لم يندهش أحد، فقد ولى زمن الذهول منذ أمد، والتَوقع سبق وأن حل محله التطلع.

وهو، معها، يجالسها حتى فى مواعيدها العاطفية. حينما تقضى وقتا طيبا مع رجل يعجبها، يبادلها هو سكوتا، يبدو متكتما على ما حدث، وكأنه يؤكد مساحتها الخاصة، يرتضى فى طيب نية أن يمنحها سرا، لا يقحم فيه أنفه، أو حضوره العارى طيلة الوقت. هكذا ظنت، حتى صادفت أحدهم فى حفل موسيقي، جاورته المقعد الأخير من القاعة، بعد أن تفضل وتنازل لها عن تذكرة صاحبه الذى لم يجئ. اقعتدت

مُصغية، مصتنتة، زاهدة الكلام. فبرق هو قرب أذنها، وهمس آمرا غير متهاون "حدثيه". رمقته كمجذوب يقبض دوما على إحساس لم يفهمه، فقابلتها عيناه، حاسمتين، نورهما جمر، يصب على مسامعها الكلمات سائلة غير محتملة التأويل. قالت فى نفسها وهى تعى أنه سيسمع "كيف لى أن أحدثه، فى حفل موسيقى؟!".

تمادت فى المكابرة للحظات، ومن ثم أذعنت وحدثته. وما إن فعلت، حتى انفتح طريق ممهد، سارت فيه كلماتهما جنبا إلى جنب، وكأن كل منهما ادخرها للآخر منذ تاريخ الخلق الأول. حملت الموسيقى حديثهما وهدهدته، وهبته أرضا بِكرًا وباركته.

غطى حديثهما على دقات الموسيقى، ومع ذلك لم يسمعه إلاهما. طالت الليلة بهما، ومدت جناحى الليل ليحملهما، يرفع مقامهما فوق سواده المؤنس على غير العادة. وعندما عادت إلى المنزل، تذكرت أنها لم تتخايل بطيفه بجوارهما ولو مرة. تأملته وهى تبدل ثيابها، يجلس على مقعده الوثير المفضل إليه، يحدقها بغنج قد ادخره لهذه اللحظة، وكأنه يهديها بوتقة سعادة صالحة لاستهلاك أعوام طويلة قادمة. كبحت بعض من دهشة ألمَّت بها، وأحلت محلها شيئًا من التفاؤل، ومن ثم سرت الطمأنينة إلى روحها. صعدت إلى الفراش، سحبت غطاءها فوق جسدها، وكأنها تطوى صفحة أخيرة من كتاب

ملَّت قراءته، ألقت عليه نظرة قبل أن تستغرق فى النوم، فشعرت به قربها، يلثّم جبينها على الرغم من أنه لم يتحرك من مكانه. احتضنها، ربت على كتفيها، ومن ثم نثر فوق عينيها عددًا من الأحلام السعيدة، نوما وصحوا.

(6)

"نقطة النور" الشهيرة، ليست إلا لحظة. لحظة لا ترتبط بالزمن، ولا يقف كُنهها عند فكرة، شخص، مكان، أو حدث. قد تكون كل ما سبق، وقد لا تكون أى شيء مما سبق، ولكنها ستظل لحظة، لحظة هجرت رتابة الوقت، وتجاوزت كافة القوانين الكونية المحيطة. لحظة قد يحيا الكثير منا دون أن يدركها. لحظة تتآلف معها أعمار البعض، وتنفر منها البقية. ينده‍ها قدر أحدهم، أو يُخفى نفسه منها. لحظة تنزع حياتك عن مسارٍ عَطِب ينتظرها، وتلقى بها فى طريق مضىء يُبيّض وجهها. لحظة تختارك هي، دون أن تمنحك خيارا للعبث ترددا معها.

وهى، على يقين من أنها اقتنصت نقطة نورها، لم تفوتها، وانتفعت بها لآخر رمق. ولكنها لم تحدد بعد هويتها. هل أتتها مع تاريخ انضمامه إلى عالمها، أم مع اليوم الذى تحدثا فيه لأول مرة، أم كانت فى تلك الليلة التى أطلعها فيها على غيب حياتها القادمة، ومن ثم اختفى بعدها، وكأنه لم يكن أبدا. استيقظت فى اليوم التالى ولم تجده فى الجوار، بحثت وفزعت، ومن ثم

تفقدته مرارا. بقيت تنتظره لأيام، تتعشم فى مجيئه وكأنه الشمس التى ستجافى منطق الوجود إن غابت. تجلس قبالة النافذة، وتتمنى رؤية شبحه يلّوِح لها معلقا فى الهواء، أو يتجسد منعكسا على صفحة الزجاج وهو يقف خلفها. ارتجفت كوليد يقابل لفحة البرد الأولى من الدنيا، بكت، وتمرغت فى الخوف حتى اتسخت أطراف روحها. ولم تجد مفرا من الارتماء على صاحب ليلة الحفل الموسيقى، تقاربا حتى عتبات الراحة التى قادتهما لخطبة، ومن ثم إلى زواج.

حَكت له عن طيفها الذى كان، صدقها وبقى لها بمثابة الطيف الذى سيكون. شيئا فشيئا عادت إلى عملها، واسترجعت اتصالها مع نفسها. لم تفتقر إلى شيء منها، كانت كاملة تامة، جبينها يرى، وكفها يَقرَأ. وكأنه لم يذهب كما ظنت، قد مكث فيها، دون أن يتبدى لها. يوعظها، ويوعز إلى صدرها. يرشدها بهمجية وأسطورية، ويكون دليلها غير القابل للتفاوض مع المنطق.

وهبها الله صغيرا، شد بكفوفه الهزيلة على ربطتها بالدنيا، أحكم وثاقهما، وأغدق على تصالحهما عددا إضافيا من البركات. اعتاشت مَرضَيّة سعيدة، كمن لم يعرف عن الامتعاض، لا يعكر صفوها مثقال ذرة من ضيق، ملل أو هم يحسبه الآخرون سُنَّة من سنن الحياة. لم تذُق المُر أبدا،

والحلو فى فمها لم يَفسَد طعمه. عملت، أحبت، وكانت أماً بدون أية مُنغّصات.

وفى يوم منفتح السماء، انتصبت هى وصغيرها على حافة إشارة مزحمة، بقيت منتظرة وهى تداعب ولدها من حين لآخر. تعصر يده تارة، وتغمز له بموارية تارة أخرى، تُهديه وردة فى ابتسامة، ويزيد على فرصها من البهجة بدأبه فى مخايلتها. السيارات تمرق من أمامهما، تحجب رؤية الصف الآخر لبضع ثوان. وبينما انقشعت آخر غمامة وقفت حائلا بينها وبين النظر، رأته، شاهدته واقفا كالسهم على الجهة الأخرى، متصلبا لا يخلو من لين، طيّعا عصى المنال. ينشب بصره فيها، يبعث إليها سلاما محمولا فوق كتف أعوام غيابه. تملته مرارًا، ابتسمت من فورها، وهى على يقين أن الأمر لن يدوم طويلا، وأن الساعة الرملية انقلبت للتو. الكادر بينهما وَسِع بما ضاق، بحورا وجبالا، صحارى، وجنانًا. الكون برمته انحصر فى تلك المسافة الهينة القاطعة تلاقيهما.

قالت بصوت منزوع الكلمات:

- أفتقدك كثيرا.

بادرها بفم مغلق:

- كاذبة، أنا معِك دوما.

تُعيد على جملتها:

- أفتقدت رؤيتك.

زاد على صمته، صمتا. فأقرت هى باطمئنان:

- ربما كنت الجزء المفقود منى، تجسدت لى فأحلت بينى وبين أشباح كُثر سكنت نفسى. أنت النور الذى أضاء داخلى حينما بزغ حولى ومن جانبىّ ومن فوقى. فلم يعد ثمة ظلام يؤرقنى. أنت التتمة، والتميمة. من قبلك اللا شيء، ومن بعدك الكل شيء.

تشرَّب ثرثرتها، مضغها على مهل، ومن ثم ابتلعها بابتسامة مُحلاّة، وجملة حاسمة:

- كل الطرق ستُمحِى عنوانك، ليس لكِ بيت إلا فيكِ. فلا تَضِللى.

ذرات الهواء تعلقت، الغبار كف عن عويله الطفيف، والنسائم انهالت كهبات سلام من الخالق. نظرهما متشابك، لايتزحزح قيد أنملة، ينغلق على سر وفرحة، وحشة، وامتنان. ودعته كما انبغى لها أن تفعل منذ ليلة مغيبه، شبِعَت منه وأشبعته مما له فيها. مرق الوقت، متنصلا من تقويمه، أرقامه، فصلاته ونقاطه. ومن ثم، شيئا فشيئا، عاد كل شيء كما كان، جلبة الشارع، هامات الناس وأصواتهم، وحركة السيارات بين الرصيفين. وما إن برقت أول سيارة، انتشلت معها وجوده ومضت بلا رجعة.

أما بعد..

فى ليلة حانت إثر سنوات طوال، دلف شابها الوسيم إلى غرفتها مُرَوَعاً، يغمغم بكلمات غير مفهومة عن جنية رابضة فى غرفته.

الفراش دومًا لثلاثة

"ضعى إصبعك فى مؤخرتى"

تفوه بها مُتلهفا، مُنهكا، فتنطق بـ "ضعى" مرتين، الأولى سقيمة على الرغم من جوعها، عاجزة عن وصل ما بعدها من كلمات، والثانية توأمة قيلت لتوكيد فعل الأمر، ولضمه بمتمماته.

"ضعى.. ضعى إصبعك فى مؤخرتى"

ذُهِلت، ولكن ذهولى لم يدم طويلا. سرعان ما حلت شهوتى محل كافة استجاباتى الشعورية الباقية. وهبته قبلة شرجية، بعدما باعدت بين أردافه، ولعقت بلسانى فتحته، ثم مررت أناملى فوقها، وغزوت بهم داخلها. تأوه بنعومة، فنهش من قلبى، وصب على رغبتى فيه جحيما. فتيقظت حركتى المدفونة فيه، وقسمت واحده الصحيح إلى كسور.

الأمر بدأ منذ فترة، بعد زواجنا بعدة أسابيع. كنت أشتمّ ذاك الغنج الأنثوى من بين رائحة فحولته الزاعقة. طالما كان رجلا أكثر من المُكتمل. ولكنه كالطامع الذى لا يكتفى بعيش المتعة إلا بعدة هويات. يشُقنى كالغول، ومن ثم يتوق لصفعة منى على أسفل ظهره. حينما يقبل على ليقبلنى، ويمد فوق كل

شبر مني أياديه، أفعل معه المثل، وبينما يستقر كفى على أسفل ظهره يجفل، ومن ثم يرفع خصره، لأملكه بتمكن، يئِن وهو بين شفتى، ويطفىء حرائقه التى تمادت فى الاشتعال بين فمى، معتصرا كل بروز فى جسدى. فأمسح كفى عليه هناك أضعاف، فيطعننى كمن يملك عضوا كقرن الثور.

من حين لآخر، كنت أصفعه بينما يكون منهمكا فى فعل شيء، فيختل ضاحكا، بعدما يغمض عينه لثوان، مقتنصا طعم الانتشاء إلى آخره. بينما فى ليال لاحقة، أقلب وضعنا بينما يضاجعنى، وأنثر قبلاتى وطرف لسانى على لحم عجيزته الطرى، فيصرخ طربا. بات يعى أننى أعرف بشأن الوجه الآخر لمقبلاته الجنسية، غير ممانعة فى أن تحل على طاولة طعامنا معا. ولماذا لا أفعل، وهو يقدم لى صنفين مختلفين من اللذة على طبق من ذهب. يجعلنى أستمتع فيه بالرجل الذى يأتى علي بقوة، والنقيض الذى يخنع تحت يدى كأمرأة. فكل منهما ينفث فى صاحبه الهياج، وأنا من يتشرب حلو الاثنين فى النهاية.

حينما أنهل من عضوه بشفتى، أقبض على مؤخرته من الجهة الأخرى، أثقل عليها معتصرة إياها كمشا وكبشا. فآخذ منه ذكره وأنثاه، أرتشفهما معا، وبجنون. بينما يفيض هو علي بهما، مسحوبا ومسحولا، لا يملك من أمره شيئا. تخرج شهوته منه، وكأنها روحه، أنتزعها إلى آخر رمق ولا أبقى فيه شيئا. آخذه إلى آخره، ولأنه مسكون بنهم مزدوج يعطينى الكثير.

رجلى ليس مثليا، وإنما متصالحا مع رغباته غير القنوعة. بحره هائج فغمر المغارات القريبة، والمتوقع غرقها، ولم يقف عند ذلك الحد، إنما امتد لكهوف الضفة الأخرى، التى يحسبها الآخرون جافة بفطرتها، لا يطالها ماء.

بينما أنا أوفر نساء الأرض حظا، الليلة واحدة بينما أنا مع أكثر من واحد. فراشى بساط ممتد وَسِع ورحب. لا يقف عند عدد. حتى وإن كان الآن دومًا لثلاثة.

شروق مُحتمل

مكثت تنتظر، وكأنه يوم القيامة...

لا يمكنها تصور مدى وقاحة الزمن، يتمادى هذا الأخرق فى ادخار الثوانى والدقائق والساعات كسابق عهده. وهل ثمة عيش اعتيادى قادم بعد اليوم؟ الآتى بعد بالنسبة لها مُرابِط بين خيارين منعزلين، لا يؤثرا التزاحم. إما تطويع المستحيل، أو الموت تحت ضربته الطائحة.

*****

أَطَل علىّ بوجه وثني دقيق، كمنحوتة متباهية بتمامها. وقتها كنت مراهقة أقف عند حد الفُحش فى اشتهاءاتى، أبحث عنه فى خط السُمرة بين قسمات الرجال، وأجترّ من قلب نفوسهم التى تبدو راكدة هياجا له فم، قادر على الابتلاع . ولهذا جعلت من بياض بشرته دعابة، وتماديت فى التندر على جماله الفاضح. نعته بـ"الأبله" مرات كُثر، و"المجنون" كان لقبه المدلل.

سكن فى الشقة المقابلة لنا، شرفته تقع فى حوض نافذتى. يمكث أسفل منى بدرجات كافية لوضوح الرؤية، ألتقطه من دون طُعم بسِن صنارتى، فى سهولة تُطفىء وهج النهم. ظللت

على عهدى الساخر منه شهورا، أراقب تأهبه الدائم لشيء استعصى على فهمى. يجلس على مقعده الوثير، قِبلته الشارع، يسدل جفونه على موضع سبات طويل، وكأنه مات. كُنت أضحك منه حد الدموع فى حين، وفى آخر أتمشى بخطوات مراهقتى على جداره العالى، فألقى على شرفته بعض من الحصى المترامى على أرض بيتنا، وشيء من بقايا خضروات مطبخنا، ولكنه يظل متوفيا حتى أجل يقظته، التى لا يقرر ميعادها إلاه.

وفى نهارات مغايرة، كان يجد لجسده مظهرا آخر غير نومة التابوت، يرتج كسماء تنشقّ بزئير الرعد وزغرة البرق. يغضب لأمر ما، ويملأ صوته جسم الشرفة قبل أن يدلف إليها، يخانق أهله بصوت محشور ثورة، ويرعبهم بأعصابه المحترقة والمندلقة من بين كلماته واحتجاج أطرافه. يُتمم الفصل الأخير من معركته مع إطلالته على الشارع، يدير رأسه بين تارة وأخرى ليتقيأ بقية جرعة الحمأ الجهنمية التى تملأ جوفه، وهو يغتصب سيجارته بشهية دامية. وكنت أنا -ورغم الخط الفاصل بتطرف بين انحسار موجاته وفورانها- أجده دوما فى حالة التأهب الغامضة تلك.

إثر أحد حروبه الضارية، افترشت جسدى للنوم، فرأيت "المجنون" فى حُلمى....

"حلمى" كلمة بدأت مفردة، وتشبثت بعددها الواحد الصحيح. ما رأيته ليلتها يستحوذ بوصف هذه الكلمة لأمد مؤاخيا لعمرى، الذى راودنى بدا تماما كالشيء المُختلق من أجله تسمية "الحلم". رأيتنى فى منامى أُحبه، وهو ما قد كان ووقع فى يقظتى. صحوت فى النهار التالى وأنا أتحسس نبرة هزليتى منه فلم أجدها، بدلا منها عثرت على صوت مبحوح يهمس باسمه. هلعت، وبدلا من أن أركض بعيدا عن شرفته، اندفعت إليها كالمرتمية فى حضن قدر سيكلفها الهروب منه دهرا.

ظننت أنها مزحة. اعتقدت فى ميلها لصبغة درامية حالمة....

قصتى تلك التى بدأت من غير إذنى، لم أكن أعلم أنها قطعت تصريح أبديتها هو الآخرمن خلف ظهرى. لم يتنامى إلىّ افتراسها لكل أزمنتى، هضمها لمنطقى، ونفيها لعقلى إلى بلاد بعيدة تقع على الضفة الأخرى من رغبتى فيه. تعجلت موعد رحيلها عن عالمى، اعتبرتها ضيفة مثيرة غريبة، مُنعشة وشهية. غرّتنى غرابتها، فرحبت بها دون أن أُبدى توقعى بمغادرتها قريبا، فتجلستنى ولثمت قلبى محيلة إياه إلى مقعد وثير.

نمت قبل هذا الحلم طفلة وقمت بعده امرأة ....

سكنت شُرفته، عشت بنومته، وبت أموت فى المرة ألف مرة لغضبه. حاوطت بجزيرتى الصغيرة شطآن مَده وجزره، ورابطت بخيمتى فى رمال صحرائه الحريفة. عرفِته، عَرِفته أكثر

منى، بدا مشروحا أمامى ككتاب اعتاد نفض سطوره أولا بأول، مُعتدًّا ببياض صفحاته ماقتا للون الحبر الأسود.

*****

أُقلِّب الساعة على كفى، لا ترمقها عينى الآن إلا وكأنها مادة هلامية، لا منفع فى عملها الدءوب ولا مهرب من وقفتها المُحدقة. أرّجها كمنخل علها تُسقط الأزمان التى تمتلئ بها معدتها، فأعيد تكوينها، وأجبرها على أن تولد من جديد فى هذه اللحظة. أُخرب رحمها إثر فعلتى تلك، فتبقى بورا عاقرة، يقف نسلها على تقويم موعدنا المزعوم اليوم، فتأتينى رغما عنك، ولا أترك الخيار فى يدك، بينما نتلاقى على يد قدر فعصت أنا عنقه بقدمى ليكتب لنا اللقاء جبرا.

*****

حظى العَثِر أوقعنى فى حب التُحفة اليونانية التى تَعجِب الكثيرات، يدفعن فيها نفوسهن راضيات، ويتمرغن تحت براثن سحرها البيّن غير متعففات، عاريات.

كنت الرجل الذى تشتهيه هامات الجمع الأنثوى المتفشية كمستعمرات النمل، كلهن ينذرن عذريتهن مقابل نظرة رغبة واحدة منك، يحممونك بمعسول كلمات العشق، ويلهبونك أشواقًا فيها من برونزية السمراء، وبداوة الخمرية، ولبنية الشقراء. حينما عقدت مصيرى بحياتك عن كثب، رأيتهن وهن

يمارسن ملاعبتك، كنت غير آبهة، لكِنك مُشبَع غزلًا، مُسكَر بحمائم الوله الأنثوى سواء شئت أم أبيت. فعرفت حينها لماذا لم تفكر فى الالتفات وقتما خبطت حصواتى وخضرواتي الساخرة فى حصنك المنيع. عددتها، ككتل الشحم التى يقطعانها من لحم أجسادهن ليرمين بها رجولتك كل يوم. فتمنعت، وترفعت.

وقفت فى آخر الصف، لم أفكر فى تخطى محلى الجاثمة فوقه، واكتفيت بنصب ثقل جسدى كله فوق أطراف أصابعى، لكى أرتفع سنتيمترات قليلة لأطبع فى ذهنى وروحى صورة مشوشة من طلتك المستحيلة. وكأنك قررت أن تبتعد بليارات السنين الضوئية فقط حينما دنوت أنا منك بسرعة قوى الحب الغاشمة. لم تعد تقبع شرفتك بين شدقى نافذتى، بل سافرت إلى أبعد غيمة منعزلة، ولم تعد بالوفاق ذاته مع سرب السحب الباقى.

مارست إرتعاشتى بك فى الظل...

كنت أهابك وكأنك شبح، وكأنى بقايا امرأة لا يمكنها منافسة سوق الجاريات الذى انفتح عليك بلا مقابل. إذا صدف وتقابلنا فى الشارع، أحيد بُكلى عن مرآك، لا أطيق نظرة لامبالية منك تقع فى منتصف روحى الممتلئة بك، وأنأى بذاتى عن رماد شبه لقاء لم تقم لناره قومة من قبل.

ومر عامان على هذا الحال الذى يأبى أن يتغير...

حتى تململت من خنوعى، وبكيت دما على كل فرصة فوتها للحديث معك، مضيت أتحرش بالظروف لكى تجود لى بمضغات الحلوى التى عافت عنها نفسى، ولكنها ضنت. لقد طالت فترات غيابك عن المنطقة، وتجوالك فى الشارع نَدُر. وبقيت أنا مُعلقة فى سماء نافذتى، أناجى غيمتك التى تمادت فى تواريها حد الاحتجاب. أذعنت لدقات نزعة المجازفة على رأسى، وحصلت على رقم هاتفك من إحدى صديقات طابور معجباتك، وقررت أن أهاتفك دفعة واحدة وبدون سابق إنذار، أو تفكير فيما سأقوله.

بنبرتك الحاسمة هرست ما تبقى فى داخلى من شجاعة، بعدما ألقيت عليك التحية، فقلت:

- مع من أتحدث؟

ارتعدت كالمطلوب منه تقديم عرض استعراضي مُجدٍ مقابل حل رقبته من الشنق:

- أنا واحدة لا تعرفها، وسيتوقف مدى معرفتك بها على حسب رغبتك.

أردفت بنبرة بدت وكأنك تُلقى بصوتك وجسدك فوق الفراش، وقد اعتدت استقبال ألغاز الليل بهذه الوضعية:

- مممممم... سأغلق الهاتف.

ارتديت حُلتى المبهرجة، وقدمت قدما لأخطو ساحة العرض:

- أعلم أنك تغلقه كل يوم، لن يُحدث هذا فرقًا بالنسبة لك، وإنما غلق هاتفك الليلة سيتحكم فى مصيرى أنا لأعوام، فلك أن تفعل إن أردت، لن أمنعك ولن أعاود الاتصال أبدا.

حركة تحولقت فيها حول نفسى، يبدو أنها أثارت اهتمامك، فنطقت بنبرة فضولية، لا تخلو من تهكم:

- ألهذه الدرجة؟

اهتز ايقاع حركتى، وخس إلى النصف، فقلت:

- نعم.

أجبتنى، بمزحة تبدو حقيقية:

- إذا سأستمع.

لفت قدماى حول بعضهما، فتهاويت بغير تردد، وصمت صمتة طويلة تقطر نحيبا.

طرقت باب خيبتى، وناديت بنبرة متحسسة:

- أين أنتِ؟

أجبتك، وأنا أنفض عن جسدى المرتطم ذرات التراب بغير طموح فى أكثر من ذلك:

- لست جيدة فى الحكى، ولا الوصف، وكأننى أنتحر وأنا ألتمس المحاولة.

تحدثت بنبرة مُشفقة:

- إذا هونى على نفسك، لا شيء يستحق كل هذا الإرهاق.

أردفت بلهفة كمن يتوق لفرصة أخرى يعاود فيها إخفاقه:

- ولكنني ...... أنا......

قاطعتنى، لتنجدتى أو لتنجد نفسك ربما:

- لست أهلا لحُبِك أو حب غيرك، أنا الآن لا أفكر فى أى ارتباط عاطفى، وربما لن أقدم على هذا الارتباط أبدا، لا أعلم أى شيء، صدقينى أنتِ تهدرين وقتك.

وخزتنى درجة المساواة التى كنت أعلم أنك ستموضعنى فى خانتها معهن، فثرت بفم مغلق، وقلب يصرخ:

- صدقنى أنت، أنا لست مثلهن.

فتفوهت بلهجة من وقعت خطواته على مخرج أقرب:

- وهذا سبب أدعى لكى تبتعدى أسرع. أنا طريق إن كُنتِ جدية فى قطعه سيودى بك إلا اللاشيء.

رجوتك وأنا على وشك البكاء، بعدما تجردت من كافة الملابس التى أعدوها لى لاحتفال ما قبل الإعدام:

- دعنا نلتقى، وبعدها قرر ما تشاء.
- آسف.. لا أستـ.....

- سأنتظرك فى الأمريكين شارع شريف بوسط البلد، الساعة 7 مساءً غدا، سأرتدى فوق ملابسى شال مميز، مزركش بلون الذهب على أرضية سوداء.
- لن آتى.. آسف، لن ...
- أنا قررت الانتظار حينها، أنت قرر كيفما شئت. وداعا.

أغلقت الهاتف على طرف الأمل، قطعت وصل العشم الباقى لسنوات قادمة، وحصرته فى ساعات قليلة، ستنتحر بعدها المحاولات، ويُغلق الملف إثرها للأبد.

*****

والآن، أنتظر نصيبى فى الحب مع قدومك، إن أتيت ستجلب لى معك حقى فى العيش بحقيقية، وإن أحجمت عن المجىء، ستحجب عنى هالة اليقين، سأبقى من بعدك، متشككة فى وجودى مع الرجال، حتى وأنا أصطفى أوفقهم، وأكثرهم انفتاحا على مشاعرى. مهما سعدت سأشقى بظنونى، لن تبلغ نشوتى سقف حلقى بينما سترابط دوما بين حطة شفتى، سائلة على قلبى لا تغرقه. ستبقى "أنت" ثم كل من بعدك، لن يتوه حضورك حتى إن غبت، لن أحبك فى أحدهم ثانية، ولن يعاود الحب تجربته معى بدونك.

أنتظرنى معك، فلا تغِب..

اشرق بشمسى، فأنا لم أولد لأحيا ليلا.

دنيا أو ما شابه ذلك

(1)

فتح عينيه على نصفه الأسفل الذى كان مازال متكوما، بينما كتلة أخرى تقع بالقرب منه، بقت على انبعاجها وصمتها المحفوف بالرعب.

أدار نظره فى المكان الذى هما فيه، ذاكرته تحبى وكأنها ولدت للتو، لا يسعه التعرف على نفسه ولا الأشياء من حوله، كفم لا يفقه معنى النطق بالكلمة.

ظل متجمدا كحمم فائضة على فوهة بركان خامد، متربصا، جاهلا بما سيأتى، غافلا عما مضى.

صاحبه الذى هو عنه غريب، بدأ يستفيق، أسند ظهره، ومن ثم تمطع ووسع حدقة عينيه، تأمل المكان، وسرعان ما لمح شريكه المقابل، فحدقه طويلا وهو يقول فى بلاهة، بنبرة متمهلة:

- من أنت، وأين نحن؟

فلم يجبه الآخر المقصود بالسؤال، بينما بقى السائل على حيرته، متقلبا على نار من فضول، يحرك تروس عينيه صوب

الأربعة جدران التى تخنق عليهما بسرعة، ويمسح بنظره الأركان المعتمة، وفى كل مرة يستوقفه خيط الضوء القادم من النافذة الوحيدة الموجودة بالغرفة. وحينما انتهى، عاد يسأل وهو يرمق شريكه فى جزع:

- من أنت، ولماذا أتيت بى إلى هنا؟

فأجابه الشريك، فى هدوء مشوب ببعض اليأس:

- لو كنت استيقظت قبلك، لكنت بادرتك بذات السؤال؟

فلحقه الآخر، بنبرة عصبية:

- ماذا تعنى؟

فتفوه الشريك بكلمات حملت فيما بين حروفها ضحكة هزلية:

- أعنى أنه لا أنا من أتيت بك إلى هنا، ولا أنت من أتيت بى إلى هنا.

فعاود الآخر السؤال، وقد شفت دماغه عن عقل هائج:

- ماذا تقصد؟ .. من أتى بنا إلى هنا إذن؟ ... هل تعرفه؟
- تأنى الشريك وهو يجيب:
- لا أعرفه بالطبع، ولكن السؤال الأجدى الآن، هل تعرف أنت من أنت؟

أطرق الآخر، وتهادت أنفاسه وكأنها تحضر نفسها لنوبة فزع مقبلة، ومن ثم قال:

- من أنا؟ .. من أنا؟.. هل أأ.. هل أأنت تعرف من أنا؟

فعادت كلمات الشريك تبتسم فى يأس، وهو يقول:

- لو كنت أعرف من أنا، لكنت عرفت من أنت؟

فمسك الآخر رأسه مذعورا، وهو يتناوب فى القول:

- ماذا نكون، ولماذا نحن هنا، وكيف سنظل هنا، ولماذا سنظل هنا؟

تفتحت أشعة الشمس، فانبثق الضوء معريا الغرفة بأكملها، فتوضحت الأركان المعتمة، وتأكد الصاحبان من أن ليس ثمة باب هنا أو هنا، كما تيقنا تماما من أنهما ليسا وحدهما، وأن ثالثا ما يضطجع فى سكون على بعد منهما. وفجأة تحركت نومة هذا الثالث، وتحولت إلى جلسة كاملة دون أية تمهيد، ومن ثم صدر عنه صوت حاد رفيع:

- بما أن الضوء كشف سرى، فالأولى أن أكف عن تمثيل كونى مش موجودة.

نظر الشريكان كل منهما للآخر، وكادا أن يتحدثا، فأطبقت هى بفمها على كلماتهما، بينما تلوح بذراعيها:

- لا داعٍ، لا داعٍ لمزيد من الأسئلة المستهلكة، لقد استمعت إلى حديثكما كاملا، وأنا الأخرى لا أعرف من أتى بنا إلى هنا (ثم نظرت للشريك الهادىء الساخر) ولا أعرف أيضا من أنا.

فصرخ المنزعج دوما قائلا:

- ماذا يعنى هذا؟ كيف أتينا جميعا إلى هنا، وأين باب هذا الشيء الذى انحبسنا فيه؟

فقال الشريك الهادئ، بنبرة وعظ وحنق:

- لقد سبق وقالت لنا السيدة ألا نستطرد فى أسئلة باهتة ومعادة.

قامت المرأة عن قعدتها، واتجهت صوب النافذة، ورمت رأسها خارجها، ومن ثم ألقت بها إلى الأسفل قليلا، وبعد ثوان قالت:

- عظيم، هذه النافذة لا قاع لها ولا سطح، تحتها مثل فوقها، والمنظر أعلاها يشابه أسفلها.

فأتى إليها الشريك الهادئ، وأخرج نصفه الأعلى من النافذة هو الآخر، بينما أتاهما نبرة المنزعج من بعيد:

- كيف ذاك؟ ماذا تريا؟

فرد عليه الهادئ سؤاله، بإجابة واضحة:

- السماء تملأ كل مساحة الرؤية، لا توجد أرض يا صديقى الجديد.

فهرع المنزعج وبات عند النافذة، وشهد بنفسه على ما زعمه الآخران، ثم أدار ظهره، وقال وهو يعود إلى الداخل مروعا:

- إنه كابوس.

فبادرته السيدة، وقد رجعت وعقدت رجليها متربعة:

- إن كان كابوسا بحق، فهو واقعنا الآن.

تعالى صوت الشريك الهادئ، وهو ينادى على عيون الباقيين:

- انظرا..

التفتا إليه، فوجداه إلى جانب صنبورين، وقد فتح كل منهما، الأول كان يقطر ماء، والثانى يقطر سائلا آخر. فقال الهزلى بصوت تشريحى:

- الأول ماء

ثم وضع إصبعه تحت الصنبور الثانى، وتفوه وسخريته تتقافز من بين الكلمات:

- والثانى حساء عدس.

جرت المرأة ناحية الصنبور الثانى، وارتشفت منه مقدمة عدم التصديق، وأغفلت للحظات ثم رنت ضحكتها، وهى تقول:

- يا لها من مزحة.

تحدث الهادئ فى نبرته المتباطئة:

- من أتى بنا إلى هنا، ينتوى احتجازنا لفترة طويلة، ولهذا فهو يوفر لنا مؤونتنا، ولا يرغب فى موتنا على الأقل سريعا.

فصرخ المزعج بتساؤل:

- فترة طويلة كعدة شهور مثلا؟

فنفى الهادئ تخمينه، بنبرته المثقلة فى وقار:

- للأسف لا أعتقد ذلك، إن أرادنا فقط للمدة التى ذكرتها، لكان وضعنا مع أشولة معلبات وزجاجات مياه معدنية، ولكنه أنشأ لنا صرفا يطعمنا، لا يفنى إلا إذا قطعه هو عنا.

أجفل المذعور. وتهربت المرأة من جحيم الموقف، وهى تقول فى مرح قاصدة الشريك الهادئ:

- بما أننا سنمكث هنا، إذن لا بد وأن نطلق الأسماء على بعضنا البعض، لذا فأنا سأتطوع وأسميك "مطمئن".

ابتسم المطمئن، وأجاب عليها تطوعها بطلب:

- واسمحى لى أن اختار لك اسم "سر".

فبادرته فى بساطة:

- لا أمانع فهو لطيف.

فعوى صوت المذعور:

- أنتما مجنونان، تماما مثل من وضعنا هنا.

فلحقه صوت "سر" متندرا، بينما كانت تحك ذقنها:

- لا تقلق سنفكر لك فى اسم ملائم.

فتوجه المذعور ناحية النافذة، وفوق عينيه تستقر نظرة غيبوبية، راكزة بعض الشيء عن سابقتها، ومن ثم قال:

- لن ألبث ساعة واحدة فى مثل هذا الجحيم، هنيئا لكما.

وهم بإلقاء نفسه فى فم الضباب الأبيض من النافذة.

(2)

امتثل كل من "مطمئن" و"سر" لأمرهما الواقع. وتبادلا الرضا حتى وإن نقما فى دخيلتهما على وضعهما معا من حين لآخر. اكتشفا مصرفا خفيا فى ركن من الأركان، فتحة بدائية، بالكاد تكفى للتخلص من مخلفات عيشهما وجسديهما. صنعا من رقائق ألمونيوم كانت منحاه فى أحد زوايا الغرفة صحنين

للحساء، وكوبين للماء و"كوز" للاغتسال. بطريقة ما تزاوجا، قادتهما وحدتهما إلى بعضهما البعض، وعلى الرغم من أن ثمة طريقا واصلا بين روحيهما منذ البداية، إلا أنهما مازالا إلى الآن يشعران بأنهما أجبرا على هذا التلاقى الجنسى. حينما تلاحما فى المرة الأولى، شعرا وكأنهما على علم مسبق بلغة الأجساد، وفى الوقت ذاته بدا كل منهما كمن لم يفعلها من قبل.

بعد عدة شهور، أنجبا، بالطبع بغير إرادة منهما أيضا، وحينما احتضنا رضيعهما الصغير، ارتعبا، ثم أحباه وتلهيا به بعض الشيء.

فكرا كثيرا فى مصير ثالثهما الذى كان، تسائلا مرارًا جهرا وسرا "ترى إلى أين ذهب؟" هذا الرفيق الذى ظننا فيه الجبن، واتضح أنه من أطبق على عنق قراره، ولواه رغما عن استقامته التى بدت أبدية، فسواء كان منتهاه خيرا أم شرا، فهو الوحيد فيهم الذى اختار أن يختار، ورفض أن يمط قدرته على القناعة لتسع وجوده فى هذا السجن الضيق.

أما هما، فأحيانا يثلجان صدرهما بفكرة أنهما اختارا أيضا، ولكن سرعان ما تراودهما الشكوك، هل رضاهما يعد اختيارًا، وإن كان الجواب لا، إذن فإن الاختيار ينافى معنى الرضا، هل من ارتضى مجبورًا طيع، وهل من اختار حرًا عاصٍ، هل التطلع خطيئة تقابل حسنة القناعة وتقف على الضفة المعاكسة لها. متى يكون الرضا، رضا، ومتى يكون مرادفا هينا لكلمة قهر.

عاشا والأسئلة تلف أعصاب أدمغتهما، يتصرفانها أكثر من أن يبوحا بها، تحاوطهما، وتنخط حتى على المساحة البيضاء التى يطلان عليها من النافذة، ولكنهما يتعاميان، ويبلعان وعيهما وألسنتهما.

وكلما وقعت عين كل منهما على الآخر، يبتسمان، وما إن يبتسما، يتواقعا، فحديث جسدهما هو النشوة الوحيدة التى يبلغاها، ومن بعد ضحكة رضيعهما باتت الثانية.

(3)

بعد الطفل الخامس، أدركا حجم المأساة التى وقعا فى حجرها، إنهما سيتوالدان باحتمالية عشوائية كلما تلاقيا، وإلا فلينقطعا عن بعضهما البعض، وقد حاولا الشروع وبإصرار على تجربة الحل الأخير، لكن الفشل كان حليفهما.

فاختارا، أقصد، استسلما لمقاليد أمورهما، وأعدا نفسيهما لحساب المواليد، الخامس، السادس، السابع وهكذا.. فى البداية، كانا يخبئان يقظة جسديهما عن أعين الأطفال، ينتظران الليل، ويخفضان من صوت جوعهما وهما معا، ولكن شيئا فشيئا باتا يتواعدان فى وضح النهار، وحينما يتساءل أحد الصغار، يجيبانه باختصار "نتحاب".

ومن بعدهما، كان أولادهما وبناتهما يتحابون أيضا، كل زوج مختلف الجنس بعينه، أو كل ولد مع أية بنت، أو كل بنت

مع أية بنت، أو كل ولد مع أي من الأولاد، أو عدة أولاد مع عدة بنات.

والمواليد تزداد، والكل يجهل نسب الجدد، أو لا يكلف نفسه السؤال.

بين كل وقت وآخر، لا يعلمان أمده، يأتى ولد أو بنت، ويرفضان انتهاج طريقة التزاوج العشوائية هذه، ينفرد كل منهم بنفسه ويعيش وحيدا، أو يمتنع عن الطعام فيموت بعد فترة، ومن ثم يضطرون للإلقاء به من النافذة، ويشاهدون جثته وهى تنطبع على اللون الأبيض، وكأنها منه وهو منها، فتنتهى، أو تبدأ، فالجميع على غير يقين مما سيحدث لها.

(4)

ومضت دهور..

مات فيهم الأصل، وتنامت الفروع، ومن ثم فروع الفروع، ومن بعدها تفرعات فروع الفروع. لوحت الأبدية بذيل كنهها، وألصقته على وجوه ومؤخرات هذا الحشد الحي، والذى يموت أيضا فى نفس الحيز الضيق من المكان المجهول، والمأهول جبرا.

وفى أيام ما من هذا التأريخ الذى لا يفنى، تفكر الكثيرون فى استكشاف ما بعد الضباب، فمنهم من غاص بنفسه هناك، متسلقا بحبل من أيادى الآخرين؛ وحينما عاد سألوه "هل من

شيء؟"، فرد ببساطة "ما نراه من هنا، هو ذات المرئى من أبعد نقطة وصلت لها".

ومنهم من تطوع بالمراقبة، ليلا نهارا، لم يرفع عينه، ولا يجعل فيها جفنا يرف، لعل الأبيض فى لحظة ما يفصح عن نفسه، يشف عما فى جوفه، أو يتلون متملصا من حالة الثبات. ولكن كل الرقاب التى اشرأبت، خابت وانكمشت، وباتت تسعى إلى اللاسعى.

ومع تعاقب الزمن، وتراكمه، سهى الآتون عن السبب، عن المغزى، والمحجوب. دفنوا فى الضباب، فضلاتهم وبقاياهم، وموتهم الذى لم يعد يثير فيهم تساؤلًا أو فضولًا.

اكتفوا بالأقاصيص التى تداولت من جيل لجيل، عن الأولين، القديس الذى نجا بنفسه من المعمعة، والوالدين الأصيلين "مطمئن" و"سر"، أسبق من انتحر كمدا ومن اغتيل عمدا، كلُ ذُكر اسمه، ونحتت سيرته، وتوارثت معتقداته، وبات له مريدون، يحترمون بعضهم البعض أحيانا، وفى وقت آخر يتناحرون.

تماما كما تناقلت عدة تصورات أرساها من فاتوا، عن حقيقة وضع حياتهم، منها ما يؤمن بالزوال حتى وإن طال الأمر، ومنها ما يقر بالديمومة والخلد. منها ما يأمر بتقديس صاحب المكان الذى هم فيه مجرد ضيوف، ومنها ما ينبذه

ويصب عليه لعناته، ومنها ما لم يعترف بوجوده. كل محاولة للاجتهاد، تحولت بتعاقب السنوات إلى طريقة، لها شيخها الذى كان، وتابعوها المتعصبون. وكلما توغل الإيمان بالقديم، انقطع دابر السماع لأى جديد. بات صاحب التصور المغاير كمقتحم المنازل ذائع الصيت، الذى يتهيبه الآخرون تربصا، وضربا بالشباشب والعصيان، وكلما كان مسلحا بفكرته، قابضا عليها، كلما بات أكثر عرضة للموت، وأصبح رأسه مستعدا للتهشم بأجران الهون.

(5)

فى الحقبات الماضية، زادت أعداد الموتى، حتى لاحقت نصف حصة المواليد. فبدا العيش ممكنا، وإن كان مزمنا. التكتل أذهب عددًا من الأرواح عدلا، لينصف العدد الباقى.

أوبئة فاغرة الفاه، بزغت لتعلن امتعاضها حول المساحة المستنهكة مقارنة بما تحمله، فمدت الأولى يد العون للثانية حتى يسعها التنفس، وبدت طبيعة الأجواء قادرة على حماية نفسها إلى حد ما.

ولكن الأمر مؤخرا لم يعد كما كان، فالموت بدأ يتأخر، ينحاش وكأن من يجود به، قرر أن يمسك يده فجأة.

وفى المقابل بقى تعداد المواليد على حاله، بل اهتاج من فرط الخوف المتسرسب فى ذرات الهواء.

وبدأت الكارثة فى الحدوث ببطء، الرضع يعجنون فى ركب الأطفال، والأطفال ينفعصون فى ركب المراهقين، والمراهقون يطحنون فى ركب الشباب، والكبار يدهسون فى ركب الشيوخ.

المكان انحشر بالأجساد، والأجساد تكومت فوق بعضها، وشيئا فشيئا تحولت إلى عصير من العظام والعضلات والأمعاء والرؤوس والأوجاع.

وحضر الموت ثانية، ليقطف أعمار الجميع فى ملحمة هزلية مفجعة، الكل ينصهر فى بعضه، والجميع يفنى وهو يراقب تلاشى الآخر.

ومن ثم، وفى نقطة محددة انخرست كافة الأصوات، واغتيلت كل الحناجر، ولم يعد سوى الصمت، وكومة مهولة من الجثث التى أكلت فضاء الغرفة.

زفافنا الذى لم يكن

تمادت فى التعنت، ثمة مكان غير مأهول آوت إليه فى نفسها، سكنت فيه، واتخذته ملاذا. نظرت فى المرآة، فلم تر شيئا، لم تعد صورتها تتبدى حتى من بين الضباب، تلاشت تماما وكأنها لم تكن. ثارت، لعلها تستعيد بعض من ظلها، عسى بركانها الحامى أن يعيد على خيوط رسمتها الممحية، يحددها بخطٍ أحمر مشتعل، يشف كما ينبغى عما يجيش بصدرها..

انتحبت بغير دموع، ومن ثم ترامى لها صوت أبيها من على مبعدة:

- هل جننتِ يا بنيتى، منذ الصباح وأنت تعدينني بأنك ستذهبين إلى مصفف الشعر، ولا تفين بما قطعتِ، أمك فى الخارج قاربت على التعديد وكأنه صوان لميت، وضعت يدها منكِ فى الشق، عريسك يهاتفنى ليطمئن على الأحوال، لم أجرؤ على مصارحته بأنكِ ما زلتِ هنا، واقفة بثياب رثة، وشعر مشعث أمام المرآة، لماذا تفعلين بنا هذا؟

جاوبته بلا صوت:

- سأحضر نفسى بنفسى يا أبى، لا حاجة لى بمصفف الشعر.

بنبرة صوت متشككة، ومرتعبة:

- هل علي أن أصدق بأن حديثك هذا، يخرج من فم عروس؟

تحدثت بلسان مُثقل كمن تضربه نوبة تشنج:

- صدق يا أبى، ثمة كثير من الأشياء الباقية والغير مألوفة فى هذه الحياة لكى تصدقها.

تملاها مذهولا، ومن ثم طأطأ رأسه كأنه يعيد اقتفاء طريق الخروج من الغرفة، كمن لم يعرفه عن ظهر قلب، ومضى منغلقا على هلعه وتوجساته.

"من الواضح أننى مازلت أنتظر رغم أنفى"

قالتها فى نفسها، لنفسها

*****

يأكل سجائره وكأنها زاده وقوته، لا يعطي بالا لألم معدته اليقظ، والمترصد له كمن يعى نقطة سهوه. يُشعل فتيل آلامه بمزيد من الدخان، ويضع نصائح طبيبه فى ذيل فلتر كل سيجارة يأتى عليها. يَسِب هذه القرحة اللعينة التى تتفنن فى إوجاعه دون أن تقتله، يفنى فى تأوهاته الصامتة، والصورة

المنطبعة للسحاب الأبيض الخارج من فمه. يخفض صمته من صوت الضجيج، ويقضّ مسمعه. ما هو إلا نصف واعٍ، مُثقل بهذيانه وهلاوسه.

قطع صوت إلى جانبه، طريقا وعرا إليه:

- أنت بخير؟

يجيب بنبرة حاسمة على الرغم من هزالتها:

- لا، لست بخير.

يبادره الآخر، بانزعاج:

- لماذا تتلذذ بإيذاء نفسك، ما كان يجب لك أن تحضر.

وهو يلتهم من دخانه، تتبعثر كلماته تائهة:

- أنا من الأقارب مثلك، وحضورى واجب.

منفعلا، يرد عليه صاحبه:

- لا ليس واجبا، أنا أتيت اليوم لأن يومى شاغر، وإن كنت صحيت من نومى وبى بعض الضجر، لم أكن سأنتبه من الأساس أن ثمة موعدا على قضاؤه، حضورى لن يزيد خالى أو ينقص منه، كما أنه لن يضيف إلى عمتك ولا يأخذ منها.

مُسلِمَا يقول والدخان يُعبأ حديثه:

- الحق معك، أتيت اليوم لكى أثبت لها ولذاتى أننى لست غاضبا من قرارها، وأتمناها سعيدة وكفى.

مُعترضا بانزعاج:

- أضغاث أفكار.

يهم ليُعارض فى حماس يبدو عليه لوهلة أولى:

- لا.. إنها الحقيقة، لست غاضبا منها. أحترم ما اختارته، وأرغب فى أن أكون بجانبها اليوم.

ومن ثم يجفل كأنه يبلع قلبه مع ريقه، ويقول:

- بالإضافة إلى كونى ميتًا بدونها، ومجيئي سيوثق شهادة وفاتى رسميا. وهو غرض آخر أقضيه لنفسى، سيهبنى إياه تلبيتى للحضور اليوم.

محدقا فيه، ومتلفظا بلهجة متأنية واطئة:

- أنت مجنون.

يبادله، بيقين:

- وهى أيضا، ولا بد أن نفعل ما يليق بجنوننا هذا.

*****

يميل الأب على أذن الأم، ويدلق فيها بعض الكلمات المتوترة:

- أظن أننا سننفضح اليوم.

تعيد زوجته توجساته إليه، بنبرة أشد ذبذبة:

- قلت لك، إن قرارها المفاجىء بشأن العرس، وموافقتها المريبة حول الشاب المسكين الذى طالما رفضته، غير مطمئنة أبدا.

ينفعل وكأنه يؤنبها:

- ظللت تُنذرين كبومة، ولكنك لم تعترضى، الآن تحدثيننى وكأننى المُحرض على الكارثة، أنا وافقت على ما طلبته وكفى، بينما أنت من تهللت أساريره حتى ولو سرا، أتنكرين؟!

تُطرِق، ومن ثم تدفع عن نفسها بعض الأسى:

- إنه زواجها على أية حال، كيف لقلبى أن يغفل عن هذه الاحتمالية القائمة بحقيقة أنها ستتزوج أخيرا. نعم، سعادتى نمت فى قلبى كطفل، يكره عقله، ولا يعى شيئا عن المنطق.

يلاحقها بلسان يلدغه الذعر، بينما ينظر إلى الباب:

- عريسها وصل، ماذا سنقول للمسكين إن ارتاب فى تأخرها؟!

يتقافز صوت الزغاريد فوق رنة السؤال الذى ولد ليموت فى التو، تهافت الجمع على الشاب المهندم القادم من الخارج، حملوه حملا بمباركتهم، وقبلاتهم، واجلسوه على نصب الكوشة المتواضع فى منتصف الشقة، وحينما أدرك الوالدين على مبعدة، لوّح بفرحة، وكوّر كفه مستطلعا بنية حسنة، فابتسما له بشفتين آليتين، ألقوا له بطمأنينة لم تكن فيهما، ومن ثم تبادلا النظر ليقتسما الرعدة التى ملأتهما.

وعلى مبعدة، بقت عينان نهمتان فى زهدهما، تراقبان من خلف سيجارة.

*****

ما إن وطأت الأم، وكلماتها تتدلى من فمها المواربب فى توجس. قطعت ابنتها عليها ثلاث أرباع المسافة. وقالت كمن يستنجد بقدومها:

- أحتاج فى عجالة لطلاء أظافر وردى اللون.

انتظمت دقات قلب الأم، وقد طمأنها هذا السعى الذى بدت بعض من بوادره للتحضر، وكأن هذه الملعونة ترغب فى الزواج بالفعل. ومن ثم ترددت، بعد تفكير:

- سأرسل أحدهم ليأتى به حالا.

لاحقتها االفتاة:

- لن يجد اللون الذى أقصده فى متاجر قريبة، أبعثى بـ "عماد" ليأتى به، إن كان من الحاضرين. فقد سبق واشتريت واحدا أمامه من متجر نعرفه.

طرحت الأم سؤالها، وكأنها تلقى بحمل من فوق كتفيها:

- ضرورى هذا اللون دون غيره؟

نفضت ما فى يدها، لتزيد من وقع إجابتها المنزعجة الحاسمة:

- أنا أفضل هذا اللون فى الأوقات العادية، لن أضعه فى ليلة زفافى يا أمى !

استنكرت الأم قولها بعض الشيء، ماطلت ذاتها قبل أن تُعلق، ومن ثم قالت:

- ألن يحسبها استهانة به يا ابنتى، الشاب ضيف كبقية الضيوف الآن، لا يصح أن نتعبه معنا.

غلفت كلماتها ببعض الدهشة، وهى تتقافز فى حركتها بين أنحاء الغرفة بينما تساوى هندامها:

- ماذا تقولين يا أمى، "عماد" ابن خالى، وبمثابة أخ لي، لقد تربينا سويا، ولن يُخجله طلب كهذا.

مفسحة حيزا فى نفسها للفرحة، تجيبها الأم:

- إذن، سيأتيكِ طلائك فى الحال، ولكن همّي يا ابنتى، عريسك سيريبه التأخر.

*****

تدنو الأم من "عماد" المُحاوَط بدخانه الأبيض، ومن ثم تميل على أذنه فى حرج، قائلة بهمس:

- إن طلبت منك خدمة يا بنى، هل ستلبيها إلينا بطيب خاطر.

يهش "عماد" هالته المُلبدة المحيطة، وهو يتفانى فى الرد بالإيجاب:

- بالطبع يا عمتى، اطلبى ما تشائين.

تحنو ابتسامة الأم، ومن ثم تقول بنبرة لا تكاد تخلو من الخجل:

- ليلى ترغب فى طلاء أظافر وردى اللون، تقول أنك الوحيد القادر على ابتياعه بسرعة.

يجفل عماد وكأن باب للشرود انفتح ما بين حاجبيه، ولكنه يجاهد لكى لا يطأ فيه قدما، ويقول:

- سأحضره حالا يا عمتى، لا تقلقى.

تتهلل أسارير الأم، وتغمغم له بطيب الكلام. يطوح عماد بسيجارته فى أقرب سلة مهملات وهو فى طريقه للخروج، فى

الوقت الذى ينزل فيه الشاب العريس عن مجلسه على الكوشة، وملامحه تبدو مستعدة لتحسس ما يحدث، تنضم الأم لوقفة زوجها كمن تحتمى به، بينما يقصدهما الشاب، وهو فاغرا فاه أسئلته:

- أين ليلى؟

يتطوع الأب للحديث وكأنه قد تحضر قبلا للموقف:

- فى غرفتها يابنى، حدثت بعض الأمور التى عرقلت ذهابها إلى الكوافير، فاضطرت لتجهيز نفسها بنفسها.

تُلجم الأفكار فم الشاب لثوانٍ، ولكنه سرعان ما ينطق فى حماسة، كمن ينتشل الحل الذى لم ينتبه له أحدا:

- بوسعى أن أحضر لها فى الحال، امرأة تساعدها فى الزواق.

يتبادل الزوج النظر مع زوجته، ومن ثم يقولان تقريبا بلسان واحد:

- فكرة جيدة.

ومن ثم تنفرد الأم وحدها بالحديث:

- سأعرض عليها، وأرى ما ستقوله.

*****

يخرج عماد من شقة الفرح، يتلفت يمينا ويسارا، ومن ثم يصعد إلى شقته فوق السطوح، يعى أنه لا يجوز تسميتها شقة، ولكن هكذا انطبع لقبها فى ذهنه، بعدما أطلقته ليلى، ولم تتوانَ عن تصحيحه حينما كان يغفل التلفظ به، صعد على مهل إثر يقينه من أن أحدهم لم يلقِ له بالا، يرغب فى أن يتجاهل حشد الأفكار الماكث على مقربة، مفسحا فكيه ليأكل منه.

"ماذا تعنى بتصرفها هكذا، تتقصد إهانته، أم إوجاعه، أم أن الأمر يقتصر على استرداد أنبوبة طلائها المفضل، الذى خلفته ورائها فى آخر مرة كانت معه فيها هنا"

على كل حال، عليه ألا يخلف وعده مع حاله، ولا يدع خط الرجعة يبتلع مساحة التسامح مع قراره بالحضور. فهو من الأساس رغب فى أن يكون موجودا، ليثبت لها ولنفسه أنهما انتهيا، ليس ثمة مجال لرغبته الباقية فيها، لن يثنيه ألم قلبه ولا وجع معدته، سيصم السمع عن تلك الآه المشدودة كوتر حاد رابطا بين أنات ما بين ضلوعه وما تحت صدره.

شعر برجفة مفاجئة، ارتدى اثرها معطف الذكريات مرغوما، ومدفوعا بأصوات حميمة ودافئة تسكن أرجاء الغرفة، تهمس له بميكال يلائمه من الحب "تَذَكرها فى بردك، لتهدأ كومة الضباب المحاوِطة والموحشة". ثم يُخَبّط صوتا على كتفيه بدون كلمات "هل تحسب أنها ذهبت بعيدا بحق، سبق

وأن اقتطعت أجزاء من روحها، ودهنت بها جدران هذا المكان، الذى لم يعد يأبه بكونه حُقَا حقيرا، أو قصرا فخما بعدما هجره شطر منها". لبث يحدق حوله، وكأنه يرى لمرة وحيدة غير مسبوقة، ولا ملحوقة. استدرك من حيث انتهت كلماته الساكنة "أنت مثل بيتك، لا تتضح معالمك إلا بوجودها مُكتملة، مُكمِلة". تفقد مكانا معتما فى داخله، وارتكن على بابه ينتحب، يتقصد تطهير روحه من أوساخ عافية المقاومة الباقية، راية استسلامه الممسوحة، مازالت تحمل بعض بقع المعافرة، وهو الأمر الذى يهابه أكثر من الموت. "ابقَ آمنا فى الظلام، النور سيلفظ أمثالك". مسح دموعه، واستقام واقفا على بعض من حطامه، ومن ثم نظر إلى ساعته، وهم بالمغادرة "هذا الوقت كافٍ جدا بأن يقنعهم، أن ثمة شابا أجاد الهرولة إلى أحد المتاجر التى يعرفها عن ظهر قلب، ليحضر أنبوبة طلاء أظافر وردية اللون لابنة عمته المُقرَبة".

ومض مشهد مخبوء فى أحد الزوايا القريبة منه، توالت لقطاته وكأن أحدهم عبث بزر تشغيله، وحثه على المواصلة من دون انقطاع، مكث محدقا فيه بعين خاوية، وقلب مهتاج...

هى بين ذراعيه، تُحولِق كفيه بشفتيها، تحتويهما بضفتيها الضئيلتين والملتهبتين، تسعى لبلعه بهما، تبدو كغولة لا تكتفى أبدا من جسده حتى وإن لم تقربه بالفعل. تطبع قبلاتها، على عقلات أصابعه المنمنمة وكأنها تنحت صغائره الخفية، التى

اعتادت زيارتها من دون أن تطأ فيها قدم. يتمددان فوق الكنبة الرابضة فى الظل، تحت النافذة، يتنسمان معا هبوة الشتاء المتأنية، يختمران بسكرة نشوة لم يبلغاها، تقول بعدما أخمد تأملها نوبة اتقادها:

- أهابك أحيانا كُثر، أخشى من شيء فيك أنا على غير علم به.

يتملاها بعقل متلبك، ومن ثم يقول:

- لا تندهى الخوف، كُفى عن إفساح حيزله بيننا.

تتأمله كمن يراقب صيده قبل اقتناصه، متفوهة بتفكر:

- لعل ارتعابك من الخوف، هو ما يدفعنى للتوجس منك.

ينأى عنها بجسده دون أن يفارق تماسهما معا، بينما ينثر كلماته فى شيء من العصبية:

- ما هذا؟ لا تتمادي فى حديث لا أفهمه.

تلحقه، بلسان العارف:

- بل تهابه.

تتحفزقسمات وجهه، وينعقد لسانه بكلمات متعثرة:

- سيرة الخوف مرة ثانية.

تقر فى حسم:

- الخوف، لا يجلب إلا خوفا.

يقذف جملته، وكأنها الخيط الرابط على طرف الحديث:

- إذن توقفى عن الخوف.

تبادله، بقوة مفرطة فى مجابهة أفكاره:

- أنا أشتمّ خوفك أنت، فأرهبه.

أدار رأسه عن الكادرات المتتالية، خلّفها وراءه لتتجلى من تلقاء حالها لحالها، ومضى يهبط الدرج، إلى شقة زفاف ابنة عمته "ليلى".

*****

هذا الأبله المستكين كصنم. المغرم بالعجز، وكأن بينهما علاقة غير مشروعة، يغالى فى إخفائها على حاله قبل غيره. ذلك الذى يرتعد من الخوف، فيخشى حد عدم الاكتراث بأى شيء. كيف يتثنى لها أن تفك كل هذه المتاريس التى نصبها حولهما، التى كبل بها حبهما. وهى من ظنت أن غضبها كافٍ ليعينها على الهجر، تبدو لنفسها الآن كشخص يقرر العودة من منتصف البحر لأن العمق لا يروقه.

تشتاقه وتنبذه، تمقته ولا تكف عن عشقه...

كل هذا الخبل، وهى من تركته طوعا. فارقته لتتأكد أنه ليس خائفا بالقدر الذى ينفى أمانها. طالما أدركت فيه هذه الخصلة، تيقنت منها، ولكن لم تقوَ على الجزم بمدى تأصلها. كابوسها الفعلى، تمثل فى تفشى داء رعبه، وبلوغه التحكم فى مصير علاقتهما. أرادت أن تختبر إلى أى درجة سيقف لخوفه، فى سبيل ألا يفقدها. لكم من الوقت سيحمل نفسه على البذل، لكى تبقى. ولكن ما إن خُيِّر بين مقاومة حاله، وبين خسارتها هى، لم يعِ حتى أنه أسقطها من البدائل المتاحة، وشطب خانتها من الأساس.

فى البداية أعياها خوفه، أرّقها وكأنه يستحضر مواطن ضعفها هى. صارحته حينها بهواجسها، وفى كل مرة إثر بوحها، كانت تَتَكشّف لها منطقة غائرة فى نفسه، هاوية ستسحبها قبل أن تسحبه، ثم تهلكهما فى آن واحد. استشفت رغما عنها، أنه مع أول معضلة ستقابلها هذه العلاقة، سينخلع بأكمله، ويلقى عليها العبء، سيدفعها دوما لمداواة جرحه وجرحها. فهو يجيد اختلاق المعاذير لنفسه، وقلب الأمور رأسا على عقب، ليغذى قدرته على الانسحاب. سيقف مرتجفا حتى وإن مد لها يده بالعون، فى الحقيقة ستكون هذه مصافحة الموت الحقيقة. سيبقى مذعورا، يطالبها من دون صوت بحلول كاملة. وإن بدا عليها التعب، سيقدم لها رضاه عن التعجيل بالخاتمة، بحجة ضمان راحتها، واحترام رغبتها. فهو لا يملك إلا بديلين، أولهما بقاؤهما المدفوع بضريبة نضالها هى وحدها، والثانى فراقهما

سعيا لخلاصها. وكلا الأمرين، تخلٍّ متنكر. والتخلى هو كابوسها الخاص، وفوبياها المزمنة.

تخلت عنه، لكى تراقب درجة تخليه عنها.. فافترقا.

ما إن ألقت بورقة "فراق" على الطاولة، حتى نهشها ليخبئ بها ورقة بعنوان "مقاومة".

ماذا تنتظر الآن، تعى تماما أنه سيطرق بابها بعد قليل، لكى يضع فى كفها أنبوبة طلائها الوردى، بابتسامة تسامح شجية، منزوعة الهوية.

دقات الباب زحفت فوق كلماتها بالفعل، ومن ثم أطلت رأس والدتها:

- ليلى، عادل يقترح الاستعانة بإحداهن لتساعدك على الزواق، هل يلائمك هذا؟

بعنف، وكأنها لم تعد تحتمل رفة ذبابة فوق أنفها:

- لا

تطلق الأم سراح خطواتها، مشدوهة قلقة، بينما كانت تتفحص هيئة ابنتها التى لم يتبدل فيها شيء ملحوظ. ومن ثم قالت، كالمتوسلة:

- لماذا يا ليلى، انظرى إلى حالك، هل سنظل هكذا حتى الصباح، الناس بالخارج يتأففون.

بصراحة من أُنهَكه الإدعاء:

- إذا دعيهم يتأففون، واتركينى فى حالى.

ألقت جسدها على الفراش القريب، طوّقَت وجهها بكفيها وبكت كمن يستكشف فعل النحيب لتوّه.

انفرج الباب انفراجة أخرى على استحياء، بدا وجه عادل متطلعا، فسرعان ما اجتازت الأم المسافة التى تفرقهما بجناحات من الذعر. زقت به خلفا، وطوت الباب وراءها، فانغلق نصف غلقة على كلماتهما، فترامت مهشمة متكسرة:

- ما بها؟
- لا شيء، إنها ابنتى الوحيدة كما تعلم، وفراقنا صعب..
- ولكن ....
- لا تلقى بالا، لا شيء يدعو للإزعاج، دعنا نجلس فى الخارج ونعطيها وقتها، فهى .....

يتباعد الصوت، أو تطفأه مقاطعة ما، وبعد عدة ثوانٍ، تُنقر دقات خاملة فوق الباب الموارب، تسحب رأسها من كهفها الصغير، وتوجه عيناً صوب القادم، وكأنها تعلم أنه هو، يزيح عنه كتلة الباب، فيتبدى جليا وهو يمسك بين شفتيه الابتسامة اللاجئة الشريدة:

- أحضرت لك طلائك.

مد لها يده، فتمسمرت فى مجلسها، ترمقه وكأن لا شيء آخر خلق بعده ولا قبله. انتصب بدوره فى محيط وقفته، بقى متماديا فى الغرق تحت موجات نظرتها، أغدقته غلا، وحشة، كرهًا، وعشقًا. تراخى تحت قبضتها، ولم يبدِ رفة اعتراض. سلم لها مقاليد أمور الفعل، واحتفظ بحقه فى مزاولة رد هذا الفعل، والتصرف بدءا من انتهائه، ووقعه. كعادته، يكتفى بالإمساك بكلمة الغير، والعبث بحروفها ليخلق منها كلمته الخاصة.

وأخيرا، وبعد مدة مرت وكأنها الزمن الذى خلقت فيه الأرض، همت من مقعدها، وتقدمت إليه، متباطئة، وكأنها لا تعى ما ترغبه، أو لم تقرر ماذا هى فاعلة بعد أن تبلغ وجوده. تناولت أنبوبة الطلاء من يده، وطوحتها خلفها، ومن ثم شعرت بقلبها ينخلع من مكانه حينما واتتها أنفاسه رغم السنتيمترات الكثيرة الحائلة بينهما. ارتمت عليه وقبلته بفم دامع، منهك ومنهمك. لم يمتنع هو، انفتح عليها، كمن لم يعِ شعور الرغبة إلا معها. ومن ثم انفرط عقدهما فجأة بوازع منها، فقالت:

- سنتزوج الليلة.

بوهت قائلا:

- ماذا؟

تداعت دموعها، وهى تفلق الكلمة نصفين بحسمها:

- قلت، سنتزوج الليلة.

سحبته من ذراعه، ودلفت إلى الخارج كطلقة رصاصة. مشت إلى الكوشة، بخطوات جنائزية مهتاجة، منزوعة الفرحة. ذُبحت أصوات الجمع، وانصرعت نظراتهم وهم يتابعون هيئتها المزرية، وجهها الممتلىء بأخاديد البكاء، الفاحمة والمختلطة بسواد الكُحل. انزرع عادل مبَاغتًا، بدا أضأل من أن يهضم الموقف، تنحى بدوره عن الفوتيه الخاص به فى أعلى الكوشة، فعلها بحدسه، ومات واقفا. بينما جلست هى فى مكانها، مستحثة عماد على مجاورتها. هرعت الأم إلى الداخل، بعدما شقت شهقتها صدرها، وأعياها العويل المكتوم. أما الأب، فصمت كمن ضربه البرق، ونهش هيبته.

حطت مؤخرتها أسفلها، أما أمامها فانفردت مساحة من العتمة. تعلقت فى خانة ما بين الرواق، والغم. الحزن، والراحة. ثمة صوتان يتناحران فى داخلها، يصمّان أذنيها، ويطبقان على روحها.

" حبستى نفسك فى قمقم الجِنى"

" مزقتى رداء الحيرة من فوق روحك وجسدك"

انعجنت بين الهاتفين، امتطت غيبوبتها وسافرت. بينما جسدها، راح يتحرك بمعزل عنها، ينضبط تحت قماشة فستانها الأبيض المنبعج، ويلم قدميه الحافيتين أو يمددهما من حين لآخر.

على غرار حظ "كيسلوفسكى" الأعمى

"تنقصنا هذه الكومة من الخراء"

تفكر وهو يقطع طريقه، بينما كان يرمق "كومة الخراء" على ذات الناصية التى سيلوكها بقدميه بعد قليل. متشرد بالع عُريه من دون شربة ماء، ولا غصة فى الحلق. يزدرد قذارته فى نهم، ويزيد على العالم هراء. "وكأنه تمطع بجسده هذا الصباح خصيصا ليُقَلص أنفاسى إلى النصف" همس بها من دون لسان، وعاود مُضيّه. هذا الأبله الراقد سيأكل ثلاثة أرباع حيز خطواته حينما سيمر إلى جانب نومته، فكيف سيسعه وطأة الرصيف، وهذه الظاهرة المُعَنونِة لسخافة البشرية تحتل طرفه الأقرب إلى الشارع، وتعيق نيته فى الوقوف والتمهل لبلوغ الضفة المقابلة، من هذه النقطة بالذات ليس لأنها تُصيب هدف وجهته وكفى، بينما لكونها الأكثر مواراة عن عيون السيارات. "أيها العجوز المدعى البؤس، انتظرنى فأنا فى طريقى لحملك على أن تكون أقل وقاحة". فورة امتعاضه عجّلت من خطواته، يعى أن أعباءه كلها تمثلت في نومة هذا الأراجوز، ولكنه على أية حال يستحق كل طاقة المقت التى يكنها له، فهو كمثل هذا البلد متمادى فى التجمل حد القبح .

دنا منه متحينا الوقت المنتظَر لفرصته، فمال بقربه وتفوه بقسوة "خدلك جنب بقى يا ابا". نفض الرجل نعاسه عن وجهه، وبدأ بفرك حدقتيه وكأن بهما وحدهما يفطن ما يقال، بينما تأهب الآخر لخطوة أكثر فصاحة عما يجيش بصدره، ولكزه فى كتفه، ومن ثم أصابه بضربة مُكشِرة الأنياب فى معدته "بقولك خدلك جنب ياخويا، انت لسه هاتنحلى". قالها، بينما بقى الرجل صامتا متصنما، محدقا فيه كوشم يقظ على بشرة مخملية، منزوع الصوت، ولكنه يملك تأوها حادا كشفرة مشرط. كوّر الأول غضبه فى كفه وهم أن يوجهه إلى هذا الوجه المشدوه، فإذا بالثانى يداهمه بيد تحركت فى وقت نصف إغماضة، لتُحدث خيطا يكاد يرى فى معدته، بينما له وقعه فى أن يشقها لشطرين بسكين صغير، اتضح أنه كان رابضا فى قبضته. تزامن هذا مع قول الرجل بصوت محشرج، ولفظة عدائية "عاوز ايه ياض يابن الوسخة". جحظت عينا الشاب بغير إرادة منه، ومن دون أن يفقه تماما ما حدث، مد ذراعًا واهنًا ليطال الشريد المتعجرف، ومن ثم خملت قواه حينما رمق بطنه، ووجد أمعاءه وقد أخذت ببطء وئيد تطل منها، بينما سبقتها سوائلها ممرغة ببركة دم صغيرة، ستبدأ فى التفحّش قريبا.

أسلم الشاب عينيه لموتة ذعر، غير مؤكدة الأسباب العلمية السديدة، ولكنها اندرجت حتى الآن فى خانة روحانية بحتة، سبقت الدوافع الصحية المحتملة للموت فى هذه اللحظات.

بينما عاد المعتوه لنومته مطمئنا، وبعد دقائق، التحمت الأجساد المتعرقة، لتُرفه عن حالها برؤية هذه الحادثة الفظيعة، التى صادف وأن قطعت طريق رحلتهم من أو إلى العمل.

*****

يومه ممتلئ عن آخره، فوضوى كساحة الباعة المتجولين فى ميدان العتبة. يطل عليه الصباح فى مثل هذه الحالات بوجه ممتعض، والشمس تبدو متقاعسة عن منحه بضع النور. الساعات عصية على العيش، ولكنه يدفعها دفعا بعزم نحيل. يُنقب عن إشراقة يمكن أن يكون قد ادخرها وقت سعادة لمثل هذا الأفول. المشى يعيره عددًا من حِزَم الطاقة المعقودة بشريط أنيق من البراح. يغمض عينيه من حين لآخر ليستعيض نفسه بشيء من نسمات الهواء، يَنخُل منها الغبار كما يُصفى داخله من الهم .

فتح عينيه فرآه على مبعدة، جسد عار ملتحف بغموضه، وعلى بشرته خُطت حكايته المهيبة بلون كتابة يشبه الطين الأسود. هاله المنظر، وارتعشت روحه. يهابه رغم كل المنطق الذى لا يدعو للخوف. ورد إلى ذهنه ذاك المشهد القاسى من فيلم ELEPHANT MAN، الذى ترتعد فيه فرائص الضيوف الآتية لرؤية المسخ فى منزله، على سبيل دعمه، وإعطائه الأحقية فى الحياة كالآخرين. وعلى الرغم، ففى وقت ينضح عليهم بكرمه ويناولهم فناجين الشاى، لم يفقه أحدهم فى

مواراة رعبه، فتمرجحت يده بالفنجان فى هلع بيّن، على الرغم من ابتسامة شفتيه التى تدّعِى كونها مطمئِنة.

كلما اقترب، بُحت أصوات أفكاره، وتعالت ذبذبات شعوره بالارتعاد. دقات قلبه تتوالى كصوت عقارب ساعة خربة، لم تعد محكومة بقوانين الوقت. وما إن اكتملت حلقة دنوه من الرجل، حتى وضعه قدره المتعنت فى مواجهة حقيقية لن تجنبه مساوئ الموقف. فالوحش استيقظ، ورفع قامته فاردا ساقيه على حافة الرصيف، وبدا أنه يحملق فيه بغير سبب. انتفض الشاب المذعور، وجز على لسانه وكأنه يمنع أدرينالين الخوف من التسرب خارج فمه. وقف مترددا، لا يقدم على تخطى مجال الخطر، فكر فى أن يلف بعيدا عن مجلس هذا الكائن المهيب. ولكنه أدرك أن عضلاته تيبست بالفعل، وكأنه فقد قدرته على التحكم فى شللها المفاجئ. داخله يحترق، يهتاج، ويتجمد فى الوقت ذاته لبضع ثوانٍ، سيستعيد بعدها حيويته بالطبع، ولكن الغيبة الآن غمرته كموجة نصف هالكة. بينما بقى الرجل صامتا متصنما، محدقا فيه كوشم يقظ على بشرة مخملية، منزوع الصوت، ولكنه يملك تأوها حادا كشفرة مشرط. واتته شجاعة مفاجئة، وقرر تفويق قدميه ليتجاوز محنته، وحينما وشى لجسده بحركة قريبة، فإذا بالشبح يداهمه بيد تحركت فى وقت نصف إغماضة، لتُحدث خيطا يكاد يرى فى معدته، بينما له وقعه فى أن يشقها لشطرين بسكين صغير، اتضح أنه كان رابضا فى قبضته. تزامن هذا مع

قول الرجل بصوت محشرج، ولفظة عدائية "عاوز ايه ياض يابن الوسخة". تقلب الشاب فوق مِقلاة رعبه وهو لا يعى بالضبط ما حدث، وإنما تفكر فى أن ما حسب حسابه قد وقع، ونهاره مازال يأبى أن يمر بسلام، وبينما مضى يبحث عن حل آخر لتفادى العجوز القبيح، انتحرت بقية أفكاره، حينما رمق بطنه، ووجد أمعاءه وقد أخذت ببطء وئيد تطل منها، بينما سبقتها سوائلها ممرغة ببركة دم صغيرة، ستبدأ فى التفحّش قريبا.

خر الشاب واقعا ومسلما عينيه لموتة ذعر، غير مؤكدة الأسباب العلمية السديدة، ولكنها اندرجت حتى الآن فى خانة روحانية بحتة، سبقت الدوافع الصحية المحتملة للموت فى هذه اللحظات. بينما عاد المعتوه لنومته مطمئنا، وبعد دقائق، التحمت الأجساد المتعرقة، لتُرفه عن حالها برؤية هذه الحادثة الفظيعة، التى صادف وأن قطعت طريق رحلتهم من أو إلى العمل.

*****

رمقه وقد فرش السنوات الهزيلة الباقية من عمره لينام فوقها عاريا. الشمس تحدق قفاه بعين الجحيم، والمارة يزيدون حريقه بشفتى دهشتهم المفغرة على آخرها، وبمسّ اشمئزازهم الذى سيكاد ينطق بالسباب. انصبت فوق رأسه عاطفة جمة صوب هذا المتشرد، ومن ثم انسكبت مباشرة إلى داخل قلبه.

قرر أنه لن يكتفى بالمشاعر الطيبة التى عصفته، ماذا تراه يمكن أن يقدم لهذا البائس المصلوب فوق همه. تفكر، ومن ثم عبر إلى الجانب المقابل من الشارع، ابتاع من كشك على الناصية عددا من أكياس الباتيه، البسكويت، والعصائر. واستدار ليعود إلى ضفة المعتوه العارى. ما إن دنا منه، وحتى اتضح جسده المتسخ، التراب الذى خيم فوق بشرته، وتجلط عليها محدثا ثقوبا فضفاضة العينين.

الجموع من حول اللقيط مازالت تدلق فوق رأسه ذعرها، تصب على نومته اللعنات، وتتمنى لو لم تقع عليه أعينهم من الوهلة الأولى. شيء من تذمرهم بدأ يستهدف الشاب هو الآخر، لسان حالهم يتفوه متدليا "ماذا يفعل هذا المخبول، ألا يخاف؟" وماذا عساه أن يخشى. إن هذا المسكين الراقد هو الأولى أن يهابهم، يهلع من بطونهم الممتلئة أكثر من اللازم مقارنة بأرواحهم الخاوية. يتنصل من تشدقهم الأبله بعاداتهم الغبية، مألوفاتهم المقدسة، وردود أفعالهم المتماشية مع الحشود.

خَطّى على حنقهم، ليلطخه بطين الشارع العالق بحذائه. التصق بالمتشرد المُسجَى على جسد نصف ميت، دنا منه ومد له يد العون المُحملة بالمشتريات، بينما بقى الرجل صامتا متصنما، محدقا فيه كوشم يقظ على بشرة مخملية، منزوع الصوت، ولكنه يملك تأوها حادا كشفرة مشرط. لم يضيع الشاب المبادر وقته فى التعجب، وإنما وبنفسه الفضفاضة هب

لمساعدة الرجل حتى يقوم من نومته. وفى الوقت الذى ثنى جذعه ليرفع ظهر الدرويش عن الرصيف، فإذا بالثانى يداهمه بيد تحركت فى وقت نصف إغماضة، لتُحدث خيطا يكاد يرى فى معدته، بينما له وقعه فى أن يشقها لشطرين بسكين صغير، اتضح أنه كان رابضا فى قبضته. تزامن هذا مع قول الرجل بصوت محشرج، ولفظة عدائية "عاوز ايه ياض يابن الوسخة". بادره الشاب من دون وعى حقيقى لما قد حدث للتو "أنا كنت بس عاوز أديلك الحاجات دى بس ...." ومن ثم انتحرت بقية كلمات جملته، حينما رمق بطنه، ووجد أمعاءه وقد أخذت ببطء وئيد تطل منها، بينما سبقتها سوائلها ممرغة ببركة دم صغيرة، ستبدأ فى التفحّش قريبا.

خر الشاب واقعا ومسلما عينيه لموتة ذعر، غير مؤكدة الأسباب العلمية السديدة، ولكنها اندرجت حتى الآن فى خانة روحانية بحتة، سبقت الدوافع الصحية المحتملة للموت فى هذه اللحظات. بينما عاد المعتوه لنومته مطمئنا، وبعد دقائق، التحمت الأجساد المتعرقة، لتُرفه عن حالها برؤية هذه الحادثة الفظيعة، التى صادف وأن قطعت طريق رحلتهم من أو إلى العمل.

---

*كسلوفسكى: مخرج بولندى.

* الحظ الأعمى: فيلم لكيسلوفسكى، يحكى عن بطل تَقرَرَ له ذات المصير، على الرغم من الاحتمالات الثلاثة التى عرضها السيناريو لمسار حياته.

فانيليا

تبدو كأنثى توم آند جيرى، بياضها يدعو إلى الحملقة، وفتات المكسرات على سقفها كالأهداب الطوال، المُحاوَطَة بقلوب حمراء تشى بما يعتمل فى صدر توم. ترى، هل ثمة قلوب حمراء الآن فوق رأسه؟ يرمقها من اللحظة التى دلف فيها إلى المتجر، ويقلب نظره فيما بينها وبين سلة البسكوت المُعلقة فوق موضعها. يكفيه ملعقتين من هذه المادة الآيس كريمية فى قلب بسكوتة فارغة، حينها سيشعر أنه نال مبتغاه. والدته منغمسة فى فِصال شاق مع البائع، فمنذ دقائق قصد ثلاثتهم المتجر، هو وأخته الأكبر ووالدته. وعلى ما يبدو أن الوالدة ترغب فى شراء قالب جاتو، وتتفانى فى مغالبة الرجل المسئول حول جودة القطع المُختارة.

يرمق أخته بعين متطلعة، ويرى على جبينها ذات الخيالات الساكنة رأسه. يتملاها بحنق، فهى وبرغم طولها الذى يفوقه الضعف، وعمرها المتباهى بتقدمه، تقف بلهاء كعروستها باربى المبتسمة دوما بغير داعٍ. يزم شفتيه، ويغلقهما على كلماته المتكسرة، العصية على التحرر فى كل حال. ينقل بصره ما بين والدته المتمعنة فى انتقاء قطع الحلوى التى لا يريدها، وبين أخته التى ينقصها مغلف كرتونى وتُباع فى أسواق الدمى.

يميل على وقفة أخته المنزرعة دون الشروع فى تحريك ساكن، يدنو منها بخطواته السلحفائية، ويلكزها فى ساقها المنشوبة فى عنق الأرض. تلتفت إليه فيشير لها بنصف إبهام نحو ثلاجة الآيس كريم، تعاود النظر إليها بخيبة ومن ثم تُعلق فوق وجهها يشمك مُجفِل صامت. يترامى إليه حسمها فى ألا تحسم موقفهما الجبان. يطرق لوهلات وقد انتابته بعض الهيبة، يتأمل حقه المُجهض فى الإفصاح عن رغباته. تحضَر أمامه صورته المعلقة فوق معدن الثلاجة، يبدو مُبطظا وقصيرا كأصابع البطاطس اللينة، التى طالما يمقتها ويفضل عليها نقيضتها الطويلة المقرمشة. هو مقارنة بأبطال أفلام الكارتون مازال نصف ولد، نصف شجاع، نصف مغامر. وسيظل طالما يكتفى فى لحظة مماثلة أن يحدق فى البسكوت والآيس كريم بعين واطئة وجسد منكمش هائب. ضغط على كف والدته، وأفسح مجالا بين ذرات الهواء لصوته الرفيع المنحشر بين كلماته..

"ماما ... عاوزين آيس كريم"

رمقته الوالدة بحنق، ثم طلبت من الرجل أن يُضيف على الطلب الآيس كريم لشخصين. آلمته الفرحة، خُيل له أن صورته على الثلاجة تزاحمت مع رسومات أبطاله المُفضلين. رمى أخته بنظرة زهو، داخله شعور بأنه مُنقذها المحرر لِحَطة

قدمها الثقيلة. يراها الآن أكثر خِفة، تكاد تكون واقفة على أناملها المُبتَلعَة داخل قدمها.

انتهى الرجل من لف قالب الجاتو، وسرعان ما التقط بسكوتتين وغمرهما فى غمضة عين ببولة آيس كريمية بنكهة المانجو. لم يدرك الصغير أن الرجل فعلها، إلا حينما انتهى من غمس البسكوتة بالكامل، ومد يده بها إلى الأم، التى أعطتها بدورها إلى الابنة أولا. تشوش تفكيره، فهو لا يشتهى عجين المانجو الآيس كريمى، بل ومن البداية أرسى العطا على العجين الأبيض الذى لا يتذكر ماذا يطلقون عليه. لا بأس، سيتدارك اللبس، وينبئ أمه حالا عنه. ولكنه سرعان ما استمع إلى صوت لطمة قوية، أتت من حيث وقفة أخته.

"معتوهة أنتِ، تعجزين عن الإمساك ببسكوتة آيس كريم"

لمح وجه بسكوتة أخته ممرغا فى الأرض، ثم تطلع إلى قسماتها المحتقنة، وعينيها المحمومتين بدموع أهلع من أن تنهمر بتلقائية. ناولته أمه حينها بسكوتته، حاوط عليها أنامله دون شد. وبقى مشدوها متأملا انزواء أخته على حافة الخرس. أتاه صوت أمه متحشرجا مُشَوها "تمسك بها جيدا ولا توقعها أنت الآخر". وبعد وهلات لا يعلم لها قِصرًا من طول، رأى كف أمه يناول أخته بسكوتة أخرى، فى حركة فائرة وقع قلبه منها فى معدته حينما ظنها لطمة أخرى. تناولت الفتاة البسكوتة بيد زاهدة وشهية باهتة، وتلاشت فى ركن منها لا يعلم عنه أحد.

فكر فى طعم الآيس كريم المتربع فى قبضة كفه، عف عنه ورمق العجين الآيس كريمى الأبيض الماثل أمامه، وقف نبضه المرتعد فوق شفتيه المُخَدّلة، وأرخى خطواته تحت ذراع أمه وهى تسحبه فى ذيلها بينما كانوا يغادرون المتجر.

عيون محدقة على نصف اتساعها

طَن صوت المايكروويف، وجبة عشائى قد تجهزت للتو، شطيرة الجبن الرومى مع شرائح الطماطم المشوية، وها أنا الآن أنتهى من تحضير قهوتى. مجرد التفكير فى الأمر يجعلنى سعيدا، يصبغ على ابتسامتى نكهة طيبة، ويُسَيّل طعم الشَبَع المُشتهَى فوق لعابى. انتشلت شطيرتى من جهنم المايكروويف، وموضعتها فى صحنى المفضل، أدرتها يمينا قليلا، ومن ثم يسارا بعض الشيء، لأعاونها على اتخاذ مظهر يتمادى فى إغوائى. أما القهوة فوضعتها فى صينية طويلة، مطبوع فوقها علامة مائية بارزة لكوب فخم من القهوة، مُتخما بطبقة من الويب كريم، وملفوفا على قمته خيط من صوص الكراميل. جاورت صحن الشطيرة بمحاذاة كوب القهوة فوق الصينية، ومضيت إلى شرفتى.

يومى كان ممتلئًا، قطع أميال من الصراعات المهنية، والإنجازات أيضا. إلى جانب الإيفاء بالموعد الشهرى للنظر فى حاجيات المنزل، وما يتبعه هذا من طواف غير مبارك بين متاجر السوبر ماركت، الحيرة بالنصف ساعة أمام أنواع الجِبَن، اللحوم، وعما إذا كنت سأرغب بإنهاء يومى فى الشهور القادمة بكوب زبادى، أم ستزهده نفسى حتى يتعفن بالكامل، ومن ثم

ألقيه فى القمامة وأنا أنذرنى بألا أفعلها ثانية، بل وأُذكر نفسى حينما أوشك على فعلها ثانية بأنى تعهدت بألا أفعلها ثانية. لأننى فى الغالب أتناسى الموقف برمته، وأستمع لصوت أفكارى الشقية التى لا تهابنى، تهمس لى بينما أنا فى ركن منتجات الألبان "أنت فى حاجة إلى كوب من الزبادى بعد كل عشاء". الصراع الأبدى المعتاد معى أنا وذاكرتى، ووقوفى منتصبا فى منتصف طريق الزبائن، أعطى قبلة الموت لقدراتى الذهنية المرتبطة باستحضار ما دونته فيها قبلا. شجاعتى وأنا أواجه مصيرى المحتوم، وحقيقتى التى لا مهرب منها، حينما أكتشف أننى لم أبتع ولو بنسبة 1% مما كنت قد قررت شرائه مسبقا. إنها أشياء وإن اجتزت صعوبتها اليوم، فالأجدر فى وقتى هذا أن أغض طرفى عنها.

رميت بصرى إلى خارج الشرفة، مُسلما وجهى للنسائم المتقطعة التى تهفو وتروح، رشفت من قهوتى، قضمت شطيرتى، وتناولت هاتفى. هى أوقاتى المفضلة، تلك، التى تُمهلنى مساحة لتأمل الصور الفتوغرافية التى جمعتها طوال الأسبوع، صور قابلتنى على صفحات الأصدقاء على فيس بوك، أو على المواقع المتخصصة التى أهتم فى التسجيل عليها، ومتابعة كل جديد الفوتوغرافيا بها. إنها إحدى أفضل هواياتى، مذاكرة هذا الفن الصامت، غير المتباهى، والوحيد من بين باقى الفنون الذى لا يهتم بأن يُعَرِّف نفسه، يشرح ذاته، وينكشف على الآخرين. بل يقف عند حده المتوارى، وينتظر مجىء الغَير، لا

يستقدمهم ولا يتقدم صوبهم. أحدهم من الممكن أن يشاهد صورة، ولكنه لا يواقعها بفعل الرؤية. وبين هذا وذاك، تقف الصورة ساكنة، كامنة على السر، منغلقة على نفسها، لا تعطى مفتاحها لمن لا يهتم بالبحث عنه.

آآآه.. إنها تلك الصورة، يشاء القدر فى تلك الليلة أن يمنحنى سعادة يسيرة، لا تُرهقنى فى السعى إليها. هذه الصورة حينما رأيتها للوهلة الأولى، ارتج قلبى، تحلقت أفكارى قبل أن تتضح، حفظتها سريعا، وادخرتها لوقت رائق، أقوى فيه عليها، وأمنحها منى، لتنفتح أمامى، وتهبنى ذاتها. تلك الشرفة الوحيدة المضيئة، فى مبنى معتم بالكامل ومُحاصَر ببقية النوافذ المُظلمة، كل شيء ينغمس فى مدى فضفاض من اللون الأزرق الداكن، المتقد وسط السواد، مُؤجِجًا بعض خيالات النور الذى يمد يد العون لبصيرتك، وروحك، حينما تقع عيناك على الصورة، فتتورط معها شئت أم أبيت. بقيت أمام صورتى الأثيرة لوقت، شعرت فيه أننى تمسمرت فى مكانى، وفى الوقت ذاته ذهبت بعيدا عن شطيرتى وقهوتى، آآآه.. شطيرتى وقهوتى، هذه ضريبة التأمل إذن، أن يبرد طعامك الذى تعبت فى تحضيره.

أخذت شطيرتى، قربتها إلى فمى وأنا أتجاهل لحمها الذى غادرته السخونة منذ وقت. ومن ثم نحيت بسبابتى الصورة الحالية، لأبلغ ما بعدها. أتذكرها هذه الصورة أيضا، طريقا

ثلجيا تَحِفه عواميد الإضاءة على الجانب الأيسر، عمق الصورة معتم، يبدو فيه الطريق ممتدًا إلى ما لا نهاية، بينما النصف اليمينى من الصورة لا يتبين منه شيء. الضوء الأصفر القانى، ينعكس على المساحة الثلجية الكاملة بالصورة، مما يصبغها دفئا وحميمية على الرغم من كسوتها البيضاء الموحية بالبرد. طفقت أتفكر، وأنا أحدق بالجانب الأيمن المتوارى عن النظر، "تُرى ما الذى يقع هناك، على هذه الناصية المغمورة المُنحاة عن عمد". لحظات أخرى، وراودنى شعور بأننى سافرت إلى هذا المكان، غاليت فى استحضار أجواء هذه البقعة البعيدة، تماهيت مع المرئى منها والمحجوب، وفجأة لفحتنى قرصة صقيع، وضبطت على كفى انكسارا لأشعة برتقالية يقظة، ضربت بعينى للأمام فغشيتنى عتمة الطريق الممتد، التفت حولى فى ذعر فوجدتنى هناك. "أنا هناك؟ أنا هناك بالفعل". انتفض جسدى، وسرت في ارتعادة ذعر لم أعهد مثلها من قبل. اشتتمت رائحة كالموت تأتى من فمى، إنها رائحة الخوف، زفرت فى رعب، فخرج دخان الجليد، ساخرا متضاحكا منى، وكأنه يقول "أيها الأبله، ماذا تبقى لكى تتأكد من كونك هنا معنا".

انتصبت فى منتصف الطريق، وقفت مذهولا، لا أرى شيئا وكأن أحدهم يحكم قبضة كفه على عينى، ارتعدت وتخاذلت أطرافى عن حَملى، تضاعفت دقات قلبى، ولوهلة ظننت أنها هى التى بقيت لأستند إليها، ولكن مع تسارعها تهاوت، وتهاويت أنا

معها أرضا. حبيبات الثليج من تحتى توخزنى، تُصفى مياهها المُجمَدة فى نعل حذائى، تُسرب لى بللها بلا هوادة، لا تمهلنى فرصة لأنتشل حالى من خيالاتى التى استحالت إلى واقع. لفتات عِدة من حياتى الماضية تمثلت أمامى، تذمراتى، ضحكاتى، أوقات حزنى، ولحظات بدت وكأننى سعيد فيها. دمعت أولا، ومن ثم بكيت، ظننت أنى مت، ولم أكن أعلم أننى لا أرغب فى الموت على هذا النحو المفاجئ، على عكس ما ادعيته سابقا من كونى أريد موتا مباغتا سريعا منزوع المعاناة. تهادت وحدتى فى سعيها إلي، جاءت دون غيرها متأخرة، ذكرتنى بنفسها، وعرفتنى عليها، جالستنى، ومن ثم أخبرتنى أنه لم يكن لى خيار معها، صحيح أننى أحسنت ضيافتها، وائتنست بها، ولكن لم يكن لى بد من ذلك. مدت كفها وربتت على كتفى، وهمست " الآن ليس أمامك مفر مما أنت فيه أيضا". فتحت عينى، وكأن ما مر علي منذ دقائق مجرد غفوة، أمعنت النظر فى المكان ببصيرة مستكشف. على الفور داهمنى فضولى ناحية الجهة اليمنى، الناحية المطمورة التى لم تظهر فى كادر الصورة. أدرت رأسى صوبها، فوجدت بيتا بسيطا، لا يجاوره شيء. خطوت ببطء وئيد نحوه، ارتأيت على مقربة منه سيارة تُشبهه، صغيرة ورابضة إلى جانبه فى طواعية، وكأن كل منهما من دم الآخر، يرتضيان بقدرهما، ويؤمنان بضرورة تواجدهما سويا، يؤازران بعضهما البعض، ويبقيان كالشامة على جبهة المكان.

دنوت من نوافذ المنزل، واحتميت بضوئها المنسكب على مهل. دفعت بوجهى ليطل من إحداها، لم تكن عينى هى التى تنظر، وإنما روحى، تنسمت راحة ما تفوح من المكان بالداخل، طفقت أتفقد بعينى الأثاث المتواضع المذواق، توقفت عند طاولة موضوعة بمحاذاة الشباك، يجاورها مقعد يليق بها، تحمل فوق مساحتها كوب من القهوة، يتنفس لفائف دِفئه بكثافة. دقيقة تقريبا، ومن ثم ظهر رجل على بعد خطوات، عجوز، ولكنه عفي. تواريت خلف الجدار لكى لا أقع فى مجال نظره. بقيت ساكنا لوهلات، لا أعى ما يجب فعله، أغمضت عينى، وتحسست رئتى وكأننى استحثها على أن تشد من أزر أنفاسى.

اتفقت أنا وأنا على أن نتشجع، فثمة مخاوف فى الحياة الحقيقية تفوق ما نحن فيه، "الحياة الحقيقية" وما يدرينا أيهما بالضبط الحياة الحقيقة، هذه؟ الأخرى؟ أم غيرهما التى لم نعرف عنها بعد. نفضت ذعرى من فوق عقلى وملابسى، وسحبت بعض فضولى واطمئنانى من يديهما لكى نواجه باب البيت، كورت كفى وطرقت طرقتين، لحظات قليلة، وانزاح الباب قليلا عن موضعه، أطل رأس الرجل مبتسما، وهو يقول وقد أفسح مجالا أوسع للباب لكى لا يبقى حائلا بيننا، بينما أدار ظهره وعاود إلى الداخل:

- أنت إذن، لقد ظننت أنك لن تطرق هذا الباب أبدا.

اندهشت، وبقيت فى مكانى كمن لدغته الصدمة، ومن ثم قلت حينما عاود هو النظر يستحثنى على الدخول:

- هل تعرفنى؟

أجابنى بنبرة مستهينة ولكنها لا تخلو من حميمية ما:

- وكيف لى أن أعرفك يا هذا، لقد لمحتك منذ وصولك فقط.

أسقط نظارته قليلا من فوق عينيه، ومن ثم رمقنى كمن يأمرنى بأن أكف عن الهراءات، وأنتوى على الأقل التحرك من مكانى، دفعت نظرته قدمىّ، واصطحبتنى فى خطواتى بالقرب منه. أشار لى بالجلوس، ومن ثم غاب لبعض الوقت، وأقفل عائدا بكوب من القهوة.

اقتعد، ومن ثم تنهد، تشاغل برشفة من قهوته متعمدا أن يتناسى وجودى، ثم اصطادنى بعينيه من فوق نظارته تارة أخرى، وقال بنبرة مُشفقة:

- اسأل.

أطلقت سؤالى كرصاصة:

- من أنت؟ وما هذا المكان؟

أطرق، وضم شفتيه على كلماته، كمن يُحضها على أن تُفصِح:

- وما شأنك بالهوية المزيفة للأشياء؟

ارتبكت، واستعصى عليّ فهمه، فاستدرك من حيث انتهى:

- مشاعرك هى وحدها من تستطيع توصيف هوية الأشياء والأشخاص. المسميات لا قيمة لها (يصمت قليلا). دعنى أخبرك بأن هذا المكان ليس إلا نصف شارع، المرئى منه فقط هو الموجود بالفعل، العتمة فى آخره مجرد عتمة فارغة، لا تحوى شيئا فى حقيقتها، إن ذهبت لتتفقدها، ستجدها مجرد هوة مهولة من الظلام، أنت الآن داخل منظر جميل فى صورة أحببتها، تتبادل حديثا مع رجل افتراضي يحيا على حافة غير مرئية من هذا التكوين الفتوغرافى.

استمتُّ فى مداراة ما أصابنى من تشوش، تعلقت عيناى بوجهه، ولذت بالصمت. انحشرت أفكارى فى رأسى، لدرجة أننى شعرت بها تتساقط من بين خصلات شعرى، تتناثر هنا وهنا على أرض المكان. مدت لى عيناه يد العون، ربطت على مواطن ضعفى، ولكن هذا لم يدفعه لأن يكف عن الحديث:

- هذه حقيقة الوضع فعليا. ولكن هل تظن أنها الحقيقة بالفعل؟

بدّل موضع يديه، شَبّك كفيه كلُ مع الآخر:

- ثمة نوعان من الحقيقة، إحداهما قريبة والأخرى بعيدة، وقد افضيت إليك بالحقيقة القريبة.

تفوهت فى توجس:

- ولن تخبرنى بالأخرى؟

باعد بجسده عن الطاولة، وأطلق رأسه متضاحكا بشدة، ومن ثم قال وهو يسعل إثر نوبة الضحك التى لم تغادره تماما:

- حينها لن تكون بعيدة إذن، أيها الكسول.

تلعثمت، وتشنجت شفتاى، فعاودت ذمهما كمن تخاذل عن الحديث. غطيت على عينى بجفونى، ووجهت رأسى صوب الأرض. فاستمعت إلى صوته، مغمسا برشفة قد احتساها من قهوته للتو:

- يقولون إن الأرض مصدر غني لنسترق منه طاقاتنا.

حملت رأسى إلى الأعلى، تمليته وبقيت ساكنا، فتفوه يأمرنى بشيء من اللطف:

- اشرب قهوتك.

قبضت على كوب القهوة، عصرته بأناملى أمتص عَرَقه وسخونته، ومن ثم رشفت منه فى هدوء، بينما واصل هو كلماته:

- الأرض ثروة طاقة، وما إن وجهت أطرافك إليها، شحذت منها ما تيسر.

بقيت أتأمله، أستلبه غرابته، كما أفعل مع كوب القهوة بين كفى، وهو يقِر بيقين:

- أنت من اخترت أن تأتى إلى هنا.

رشفت من قهوتى، وتنصت سامعا بإمعان، فشعر هو ببوادر استرخائى، قائلا:

- سبق وأن سرقت الكثير من طاقة الأرض أيها السيد.

ابتسمت، وتماديت مُمهِدا طريقا لأذنى بصمتى، على الرغم من أن لغة جسدى كانت تنم بما فيه الكفاية على عدم فهمى لأى شيء، حينها نطق وهو لا يلوى على شيء، وملما بكل شيء:

- أنت من ناديت فكرة سفرك إلى هنا، ناديت عليها بطاقتك، من دون أن تدرى فحدث ما ابتغيته، وها أنت الآن تتفقد بنفسك، المكان اليمينى الذى أثار فضولك بغيابه عن تكوين الصورة.

شفطت من قهوتى مضطربا، مفزوعا، ملقيا بعينى على اللاشيء، محاولا أن ألملم بعض من شتاتى، ومن ثم عدت لألقى عليه سؤالى:

- هذا يعطينا احتمالية جيدة، بأن هذا المكان من صنع مخيلتى.

تشتعل عينا العجوز، كمن وجد أخيرا ما يحمى وطيس المحادثة:

- قد يكون ذلك أحد أوجه الحقيقة البعيدة.

تزوغ عيني، وتسحبنى موجة شتات جديدة، تطفو على سطحها بعض الكلمات:

- أنت ذاتك، متواجد هنا بفضلى.

يبادلنى الصمت بعين العارف الماكن، وبانفراجة شفتين مطمئنتين، تقفان على الحياد بين النفى والتأكيد، بينما أنا أنفلت مستغرقا:

- كل ما فيك أنا الذى خلقته، قهوتك، الطريقة التى فضلت أن تدنو بجلستك فيها بقرب النافذة، ملابسك المهندمة التى تقارب ذوقى، حطة أثاثك الملفت فى جماله على الرغم من تواضعه، حتى وحدتك.

رفعت كوب القهوة إلى شفتى، واجما، مسترسلا فى الفِكرة، ولم يندلق إلى فمى سوى خوائه. التقطنى بعينيه، ومن ثم قال:

- أحضر لك آخر؟

لم تخدش جملته حيز عبثيتى فى تلك اللحظة، استطردت شغوفا بتساؤلى، بينما لا يزال كوب القهوة معلقا بين كفيّ:

- لماذا اخترت وأنا أوجدك، أن تكون وحيدا، لماذا لم أتملص من وحدتى، فقد أعيانى واقعها، لماذا اتخذتها معى وأنا أصنع عالما موازيا يُرضى تطلعاتى؟

سألنى هو مستشِف، مجترا المزيد من تخميناتى:

- هل ترانى انعكاسا لك؟

زدت على سؤاله سؤالا:

- هل تعتقد أننى خلقتك لكى تكون أنا مستقبلا؟

أجابنى، وقد نشب مخالب عينيه فى عينى:

- وحدك من يستطيع الإجابة.

نقلت نظرى صوب اللاشيء، وأنا أطلق سراح سؤالى ليمتد إلى الفضاء فى الخارج:

- إن كان الأمر كذلك، لماذا إذا اخترتك وحيدا، وأنا ووحدتى لم نعد على وفاق تام مؤخرا، بتنا نتنازع دوما، وكأن كل منا ليس له خيار فى البقاء، أو الفراق، وإن وُجد هذا الخيار لتم الهجر بيننا فورا.

عاود سؤالى بنبرته الحيادية المُحرِضة:

- أنت على يقين، من أن الوضع بينكما كان كما وصفته؟

تشبثت بنظرى فى وجهه، مُحدِقا، مُترقبا:

- ماذا تقصد؟

انتشل الكوب من يدى، وقام عن مجلسه متلاشيا إلى الداخل وهو يقول:

- أنا لا أُسأَل هنا، بل أنا من يسأل، تذكر هذا دوما.

راقبته وهو يدلف إلى البقعة المظلمة، ومن ثم لمحته عائدا منها، قابضا على كوبين من القهوة، نافذا كبقعة نور تسطع رغما عن أنف الظلام المحاوط. عاد إلى مقعده مبتسما، مقربا إليّ نصيبى من قهوته، ومحتسيا خاصته على رواق.

سألته بنفس لُؤمه وعفويته:

- لا يوجد شيء فى الداخل، مجرد بقعة ظلام، لم يعمل عقلى على تشكيلها، منشغلا بتفاصيل الغرفة ذاتها هنا، إنها السرداب السرى لصنع القهوة وكفى.

ضحك بشدة، ومن ثم قال وهو يومىء برأسه مؤكدا:

- وهذه تقنية أخرى من تقنيات عمل الخيال، الاكتفاء بالسراديب السرية ببدائيتها ولاحقيقيتها.

لحقت بضحكاته، ومن ثم وجهت وجهى شطر النافذة، وقد لمت ابتساماتى فجأة، رمقنى، ولكنه لم يتخط الحاجز الذى اخترته لنفسى وقتها. استأنسنا بصمتنا، وكأن كل منا يستحوذ على مساحة عزلته خالصة، ينفصل عن الآخر، يغادره حتى وإن بقى.

غمرت كوبى بكفيّ، وأنا أعاود تملى رجل خيالى بابتسامة دافئة كالتى تنبعث من قهوته، ومن ثم قلت فى حسم:

- كل ما فيك يعجبنى.

ومن ثم مسحت ببصرى تفاصيل الغرفة، تمشيت بعينى على المكتبة الضئيلة المركونة بأناقة فى الركن، والمُرَصَعَة ببراويز صغيرة لمصر القديمة، مُوزَعة بحذق نسبة إلى أحجامها، ومدى توافقها مع المساحات الفارغة على الأرفف. الطوب البارز المَطلِى بطبقة طلائية بنية مائلة إلى رونق الذهبى الداكن، والممتد على نصف جدار الغرفة بأكملها، بينما النصف الآخر من فوقه يُكمل ذوقه الرفيع بطلاء متباين مع درجة لونه، وكأنه يأتيه بالشيء المفقود من الجمال فى العالم أجمع. التابلوهات المودرن المخبوءة بحرص فى زاويا المكان، والتى لا تبالى بنظيرتها من الدلايات الشرقية، والمفارش الخيامية. الفوضى هنا خلاقة، تتناطح الأشياء ندا بند، ما بين الحداثة والأصالة، تتحدى أبسط قواعد الديكور، ولا يجور بعضها على روح الآخر، برغم ضآلة المكان. الآن، قلّصت تدقيقاتى عليه هو، وضعته بأكمله قرب عدستى المُقربِة، وعرّيته فى رواق من خلع ثوب هواجسه، وبدا كما لو أن الغرابة من حوله تستثيره. لاحظت رداءه الموحى بسنه العجوز، والذى لا يخلو من عظمة. شعيراته المرتبة، وجهه المُتفتح النضر، المُورد رغم ضحالة التجاعيد المحاوطة به.

قلت بينما يتشاغل هو بقهوته، ممعنا فى أن يبدو كرجل لم يعد يعطى للعالم وجها:

- كل ما فيك هو فى الحقيقة ما أعشقه من حياتى، وكل ما أتوق لأخذه فى حيواتى الأخرى.

استحثّني بعينيه، وكأنه يؤيد حديثى كشخص لا يفقه الامتعاض، أو بالأحرى كآخر يُفضل ألا يخوض المناقشات، تنهدت ومن ثم تراخت جفونى وأنا أقول:

- فيما عدا الوحدة.

موضع كوب قهوته على الطاولة، وضغط عليه بكفه، ورمى بثقل نصفه الأعلى ناحيتى، مفسحا مجالا مهيبا لكلماته:

- ماذا كنت تفعل، قبل أن تأتى إلى هنا؟

مدد الارتباك قدميه فوق قسماتى، أجفلت قليلا، ومن ثم أجبته بسؤال:

- وما شأن ما كنت أفعله فيما أبوح لك به.

تشنج فخدش زجاجية ملامح وجهه، فلم تعد ملساء عصية الرؤية كما كانت:

- أنا من يسأل فقط، ماذا كنت تفعل قبل أن تأتى إلى هنا؟

واتتنى بعض صور لحظتى التى كانت، مُغبشة كما لو كانت من خلف ستار:

- كنت أتناول عشائى، وأتأمل الصور الفتوغرافية التى قمت بالاحتفاظ بها طوال الأسبوع.

سكت قليلا، وأرخى ظهره بعض الشيء:

- أفعالنا فى الحقيقة، هى مشاعرنا متخفية فى حُلة مادية، ملموسة. عندما تأكل طعامك بشراهة، فأنت فى واقع الأمر تستثمر لحظة سعادة تمر بك، وعندما تتناوله بغير شغف لم يكن هذا إلا مجاراة لغيمة كآبة تغمى محيطك. فى الحالتين، وبغض النظر عن كم اللقيمات التى تزدردها، طعامك لم يكن إلا مرآة ترى فيها داخلك.

أجرَى يده على خصلات شعره متفكرا، ومن ثم استطرد:

- الحقيقة القريبة، تقول إنك قبل أن تأتى إلى هنا، كنت مجرد رجل وحيد بائس، يتناول عشاءه بمفرده، ويأتنس ببضع صور لكى لا تطول ليلته. ولكن ثمة حقيقة بعيدة يمكنك أن تراها فقط إن ارتأيت المشهد بإحساسك، لا بعقلك.

ومن ثم تملى عينى مباشرة:

- تذكر شعورك.

شيء ما دغدغ صدرى حينها، فقلت:

- كنت سعيدا، مؤتنسا.

فابتسم لى، وكأنه يوشى بأننى أدركت ما سعى لتوضيحه، ولكننى سرعان ما لاحقت ابتسامته بكلماتى:

- ولكننى فى أوقات أخرى، أبدو ممتعضا لدرجة تحول بينى وبين عمل كل شيء أصبو إليه، حقيقة إننى وحيد تعرقلنى، كما لو أننى تعثرت بحجر ضخم، كسر لى قلبى قبل ساقى.

يربط على كلماتى، بتفسيره الحاسم:

- هذا لأنك تورط ذاتك بذاتك فى الحقيقة القريبة، تدعها تنال منك، وتخنع منصاعا لها، مستيئسا، وما إن يجد الحنق فيك مكانا، ينفخ عليك خمولا، ومرارة تشوش على طعم كل شيء حلو.

سَهِمت، ومن ثم قلت متعنتا:

- هذا لا ينفى كونى وحيدا.

يرمى السؤال على مسامعى، بينما أتقصد أنا التعامى عن رؤية ردات فعله:

- أنا لا أنفى كونك وحيدا، ولكن السؤال هنا، ما الذى ترغبه من وراء كونك غير وحيد؟

بدون تفكر، تفوهت:

- المشاركة.

فألقى عليّ جوابه عفيا متعجلا:

- لديك نفس لتُشاركها، إن بخست قيمتها، زهدتك، وجعلتك وحيدا بحق. لا تحط من شأنها، فهى الأجدر بمقاسمتك ما تحب.

عقّدت حاجبيّ، تلجلجت، وأثقلت عينيه بنظرة عجز، ومن ثم نطقت مترددا:

- هذا الشيء الذى أرغبه، لا أعى ما هو لكى أفصح عنه، ولكنه يوخزنى ويقض مضجعى.

تفتحت علامات وجهه، ومن ثم قال فى إقرار:

- الحب.

انتقلت بنظرى إليه، منساقا متنصتا. فاستطرد بنبرته الوعظية:

- ولكن أن تحب لا يعنى أن تشارك.

تمعنت قوله، وساءلته الاستزادة، فلبى قائلا:

- إذا أردت أن تحب كى تُشارِك لن تحب أبدا، الحب وحده غاية، لا يصح أن نتسلق على أكتافها وصولا لغاية أخرى. إن لم يأتك الحب طوعا، لن تفلح فى

البحث عنه. الوحدة لن تحول بينك وبينه، ولن تبعد أيضا بينك وبين نفسك. لا تُحمل وحدتك ما فوق طاقتها. اقتسم مع نفسك تزيد، ومن ثم تفيض على الحبيب الحق الذى ستتعثر به وأنت فى طريقك إليك.

اعتصرت رأسى بين كفوفى، كمن يهشم عنق أفكاره:

- إن كنت انعكاسا مستقبليا لى، هذا يعنى أننى سأظل بلا حب؟

تهافت لكى يرد قولى بشى من العصبية:

- وما أدراك؟!!

فتحت ذراعيّ على آخرهما، ومضيت أنثر إشاراتى إلى الغرفة وأنا أتحدث:

- ها أنت هنا، غنى بنفسك، زائد على أكثر من واحد، ولكنك بلا حب.

نزع عينيه وهو يمسح بهما على وجهى، قبل أن ينطق بنبرة غيبية:

- أنا كذلك لأنك أردت أنت ترانى كذلك.

انتصبت فجأة، وقلبت الطاولة كمن لم يعد يحتمل نَفَس ذبابة على أنفه:

- كفاك هراء أيها الكهل.

لم يسقط عيناه عن عينى، واستبقى على ابتسامته الباردة. فتماديت فى غلي، ومددت كفى ملتقطا طرف القشة التى قصمت بعيرى من فوق كتفى، قائلا:

- ولأزيد عليك عندا، أنا ذاهب لألقى بنفسى فى المتاهة الظلامية المتواجدة فى آخر الشارع، والتى سبق وخبرتنى عن هيبتها، لعل مجهولها يكون أكثر نفعا منك.

مضيت لتوى، لم أستمهل لأمعن النظر فى شيء من حولى، أوزان إضافية من الغضب أثقلت خطواتى، وموجات من العتمة افتُرشَت أمام ناظرى. بضع أمتار، اجتزتها فى زمن قياسى، ومن ثم رأيتنى وأنا قبالة العتمة، أشق قلبها كنصل سهمه حُذِف إليها حذفا.

وجدتنى فى منزلى، واقفا والذهول يغطينى كحبيبات الثلج المتبعثرة فوق سترتى. على سطح قهوتى تصلبت طبقة من غيابى، وحواف شطيرتى باتت قاسية. لا بد وأن بضع دقائق مرت علي، وأنا مصعوق مكانى، لا أعى بالضبط إلى أين ذهبت دماغى، غير قادر على فك العقد الممتلئة التى لفتها أفكارى من حولى.

توجهت مباشرة إلى الحمام، خلعت عنى ملابسى، ووضعتنى أنا وجسدى أسفل الماء الساخن. غسلتنى من تلك الليلة الأسطورية، أو حسبت ذلك. ذهبت إلى فراشى، أمضيت حوالي ساعة فى محاولات خائبة للنوم، ومن ثم اجتاحتنى نوبة

عصبية من الفِكر، كان من الأفضل ألا أتجاهلها، فتناولت مفكرتى وطفحت عليها مما يجيش به صدرى. جملة واحدة من بين الذى دونته، ظلت تعاودنى فى اللحظات المتورطة ما بين الصحو والغفوة. "هل أنا أردت بالفعل أن أراه بلا حب، إن عاودتنى الرؤية تارة أخرى، وعزمت بينى وبين نفسى على إبصار ما أتمنى، وليس ما أنا خائف منه، سيتغير شيء بحق".

وجملة أخرى، استيقظت لأجدها مُلحَقَة بذيل سطورى، لا أتكهن عن توقيت تسجيلى لها بالضبط.

"ما كان يجب أن أتطوع من تلقاء نفسى لكى أجلب لنا كوبى القهوة فى تلك المرة، كيف أقررت بهذه الحماقة أنه وحده فى المنزل. أضأت النور برباطة جأش، لأبحث عن المطبخ فى الداخل، سابقا إياه إليه، بينما هو يثنينى ألا أفعل، ظننت حينها أنه يحاول أن يدفع عنى مشقة المهمة، لم أكن أعى أننى على وشك إزعاج حفيده النائم، والذى سيصعب علينا محاولة إعادته لغفوته مرة أخرى، لكى لا نُغضِب كل من والدته وجدته اللتان ذهبتا لإحضار بعض الأشياء من البلدة".

الساعات الأولى من الاحتضار

وقفوا يحدقون ...

رموا على هيكلها المذعور بعض الظل المشحون بدفء تنفسهم، وطمأنوا هلعها الهائج طوال ليلة ماضية بشيء من ونس. رجموها بالتخمينات المتداخلة، وصوتهم مفطوم بعنجهية الرجاحة، "لعلها سقطت سهوا يا حرام من يد أحدهم"، "من الواضح أنها باهظة الثمن"، "ومن العارف ؟!، من الجائز جدا أن يكون من ألقى بها، فعلها عمدا، فالأثرياء لا يتحسرون على الفائض منهم، وقد يتخلصون منه ليرفهوا عن أنفسهم، ويحظون ببعض التسلية".

مدت عقاربها المذهبة لتدشن مأواها، منتظرة مصيرها المحتوم بين يد أحدهم. احتالت نبرتهم إلى نزعة سيطرة، وتدلى من كلماتهم فك كبير يتوق فى حرارة للإتيان على بقايا الكعكة المُرسلة من مجهول. "ثمنها قادر على أن يفك ضيقة مُشرد"، "لا بد أن يظفر بها محتاج حقيقى".

غطت النزاعات على وقع دقاتها المنتظمة، والمُسّعرة فى الدقة منها بعشرات الجنيهات. "كانت أقرب من دكان عم عبدلله"، "لا، أنا رأيتها تلتمع صباحا عند عتبة دكانى، ولكنى ظننتها معدنا رخيصا فركلتها على مبعدة". لم تأبه كثيرا، فأى

وجود بات بالنسبة لها معول عليه، بعد رعدة أمس، إثر انفراد الليل بها، وتآمر ذرات التراب عليها، السكون الذى توعدها وانتشى بنحيب الزمن الرابض فى باطنها، حتى كاد أن يتوقف قلبه رعبا، متخلفا عن اللحاق بركاب الدقائق والثوانى التى تصنع أعمار الجميع.

أطبقت على سرها، هى وحدها تعلم أصل حكاية صاحبها، الذى لم تكن ولو يوما له من الأساس. فهى غريبة عنه، كبُعد جبلين بينهما أطول خط جغرافى مستقيم. يا لها من قصة حزينة، يغتالها شعور بالأسف لأنها كانت طرفا فيها، صحيح هى جماد لصقوا فى ذُيله صفة الموت كختم الحكومة المعوق على الأوراق الرسمية، ولكنها أفقه من بعض البشر، وأغنى مقارنة بواحد فيهم، لا ترتفع منزلة قلبه إلى علو صورة الزينة الموضوعة للتباهى فى صالون بيته.

الحكاية بدأت ذات صباح، حينما دلفت امرأة أنيقة إلى صدر حانوت الساعات الفخم، حيث وُضعت الساعة المعنية على أحد رفوفه. طبعت المرأة خطواتها فى المكان بنية من يرغب فى غرس بصمة حضوره، طفقت رائحتها تفوح ذكية مُهدهِدة، ولكنها تخفى شيئا ما يدركه من يعتبر. بدت ملامحها منحوتة كتمثال يونانى ينطق من دون صوت، دقيقة فى ملبسها ورسم خطواتها كحُلم استحال إلى هيئة بشر، نبرتها حادة كضوء

البدر فوق محيط السواد الشره، وكلماتها مقتضبة وافية كنصل سكين يقطع قبل أن يحط.

ابتاعت الساعة إياها دونا عن مثيلاتها. هنأها البائع على حسن ذوقها وقد ابتلع خدر حضورها الذى طغى على المكان. جيبت الساعة فى قلب معطفها بزهو خفى برىء من نعرة الأنا. وما إن بلغت بيتها، ركنت ساعتها المدفوع قيمتها باهظا إلى أقرب حائط فوق مكتبها، وحاذتها بميعاد محادثة صاحبها، فقد عثرت فى قائمة اتصالاتها على رقم أحدهم، ذاك الشخص الذى يهاتفها مستغيثا بصواب استشاراتها وقليل من غواية صوتها، فلا ضرر من مهاتفته أولا، حتى تحول بينه وبين خيبة قد يتعثر بها من دون توجيهها، فهى لا تنوله منها أى شيء، هى كُلِها لحبيبها الذى انتقت له هدية ذكرى لقائهما توا، ولكنها تفعل ما تمليه عليها إنسانيتها وإيثارها مد يد العون للآخرين، هكذا ثرثرت مع حالها، قبل أن يبدأ عمر المكالمة الذى امتد حوالى ثلاث ساعات. أما الساعة قد دُفنت فى مكانها، محاوطة بنسمات من صقيع تنبعث مع أنفاس صاحبة البيت، تُشبه خيط الريبة الذى سبق وأن توارى فى رائحتها الرحيقية التى كانت فى حانوت الساعات.

توسط سهم النعاس حدقة عينيها العسليتين بعدما أغلقت الهاتف، فألقت بجسدها فوق جناحى فراشها وذهبت حيث أخذها، ولم تصغِ إلى رنين الاتصالات إلى جانبها، بُح

صوت الجرس، حتى وعت فى مرة من مرات تقلباتها، وأجابت متلهفة:

- آسفة حبيبى، كنت نائمة.

الصوت اللاهث من خلف السماعة:

- أنتِ بخير؟

هى، بحرص على طمأنته:

- نعم، لا تقلق.

هو، بضيق مُروَّض:

- طلبتك كثيرا، هاتفك كان مشغولا.

بنبرة صادقة، تتوق إلى فرض سيطرتها:

- كنت أتحدث مع أحد زملائى فى المنحة، أشرح له بعض الأمور المنغلقة على فهمه.

بنبرة مثخنة خيبة:

- كل هذا الوقت.

هى، فى شجاعة لا تريد أن تُوجد لنفسها طريق عودة:

- هو كثير الكلام، وأنا لا أقوى على صد أحدهم واستأذنه بإغلاق الهاتف، أنت تعلم هذا.

- ....

هى، بنبرة جهنمية:

- أتوحشك كثيرا.

هو، بدفقات من الشوق والكَسرة:

- وأنا أيضا.

ومن ثم قال رغبة فى التأكيد:

- على ميعادنا غدا؟

فأردفت بإشراقة تغدقها على الحديث:

- بالطبع نعم.

هو، بنبرة ممتلئة بغض وحب:

- إذن اذهبى لتتمى نومتك، ولقاؤنا غدا.

عادت إلى حضن نومتها. بينما وقفت منها الساعة_ فى مكانها على المكتب_ موقف المدهوش. فمنذ حلت ضيفة على بيتها، لمست تواضع أثاثها مقارنة بما تكلفت دفعه فى شرائها، ومن ثم تاقت لكى تطلع على بيّنة هذا الحب الذى بُذِلت من أجله أموال غير مُستطاعة، ولكن ما اطلعت عليه بَدّل كل ما فى مخيلتها من تصورات سامية، وحواديت حالمة. إنها لا تشتم إلا رائحة الجليد المنبعث من قلب ألسنة نار، نار لا دليل على وجودها سوى مرآها أمام العين. مثل السراب الذى يصدقنا كذبا.

تربعت الشمس فى مكانها ككل يوم...

فرد الصباح ذراعيه متمطعا، وهو يتنصت مع الساعة على هذه المكالمة ....

هى، بمخزون من الأسف تضعه أسفل خزانة الجمل والكلمات التى تسخدمها عادة:

- حبيبى، آسفة لن أستطيع أن ألقاك اليوم.

هو، موجوعا من إصابة توقعه:

- لماذا؟

هى، برثاء موجود أسفل نفس الخزانة:

- والدى مريض، أرسلوا لى رسالة هذا الصباح، سأسافر لزيارته، وسأبقى هناك لعِدة أيام.

هى، بتوسل مستعد ليكشر عن أنيابه:

- تصدقنى، صحيح؟

هو، وقد شُمعت شكايته بسائل من الشمع الأحمر:

- المشكلة أنك لم تكذبى يوما.

هى، وقد انتصبت نبرة صوتها:

- ماذا تقصد؟

هو، بصوت من يلملم أوراق لعبه بعد هزيمة:

- لا يهم، أتمنى لوالدك كل الخير.

هى، وقد حرصت على أن تكون حريصة:

- سأمرق عليك لأعطيك هدية ذكرى حبنا، ولكننى سأكون على عجلة من أمرى، لن أستطيع الصعود، فبمجرد قربى سأهاتفك، لتقابلنى وتأخذها منى.

هو، فى مبادرة متلهفة:

- لا، دعيها لبعد عودتك من فضلك.

هى، بنبرة حاسمة:

- مشتاقة لتراها، لن أطيق الانتظار لبعد عودتى. كما أننى أريد أن أراك حتى ولو لدقيقتين قبل السفر.

تملتها الساعة وهى تتهندم أمام مرآة نفسها، مرآة ليست بالضرورة أن تعكس صورتها هى، بينما يقفز على سطحها انعكاس الألباب التى ستُخلَب، والعقول التى ستسلب، النوم الذى لن يبيت فى عُشه، والدقات التى ستفارق الصدور. إنها مرآة محتشدة ازدحاما، لا تفسح مجالا لرؤية فرد واحد صحيح، بينما يتكوم على جوانبها ركام أشلاء آخرين.

قابلته...

رآها وهى قادمة، تدهس فى خطوات طويلة واثقة. رآها بعيدة رغم كل محاولاتها فى أن تخطو بالقرب إليه، هى فى

الحقيقة توطئ قدمها بهذا الغنج على الأرض كى تدنو من ذاتها، تَحد من المسافة منها إليها، فهى ما تزال على الضفة الأخرى من احتفاله الدامى بها، احتفائه المشتعل الذى بات يأكل منه طوال سنة كاملة مضت، اليوم لاحظ الرماد المتنسج بخلايا أطرافه، شيء من القتامة الفائحة بالتفحم نبتت داخل قلبه، يشتم رائحتها ويذوق من مُرها.

قبلته من خده وابتسمت، فتحت كفه لتموضع هديتها فيه، ومن ثم همست:

- لو لم نكن فى الشارع، لكنت .....

ووجلت بعينيها داخله ونالت من جسده، فهرب منها كأرنب يهلع من فوهة بندقية:

- آسف، لم أحضر لك هدية.

فتفوهت وقد نفضت يديها من كل شيء بعدما وارت هديتها فى يده:

- لا يهم حبيبى، الآن عليَّ أن أرحل.

وقالت بينما اتخذت طريقها بالفعل:

- افتح هديتك فى المنزل، سأهاتفك لأعرف رأيك فيها.

ترجّل غيبوبته، وتمشّى فوق حمائم لحظته الموجعة. الآن يشعر أن رؤيته الواضحة بدأت تُحرك فيه النبذ الذى طالما

تمناه. لم يخطط أن يخبرها عن عدم شرائه هدية لها، الحقيقة أن الهدية التى ابتاعها لها تُثقل جيبه الآن، وقد اعتمرها كجزء من ملابسه، مُتصورا بمخيلة عاشق كيف سيُقدمها إياها، ولكن شيئًا ما منعه من أن يفعل عندما ارتآها على مبعدة، المسافة التى بدت بينهما امتدت لتفصل بينه وبين قلبه، فشعر لمرة أولى بوخزة عقله، وتنبه لبحة الجرح المقيتة التى اعتلت نبرة صراخه، وكأنه لبث ينده منذ زمن من دون مجيب.

"لا يهم أن يحضر لها هدية، لا يهم إن كان يُحبها ويتلهف الليلة السابقة على محادثتها، المهم أن تشعر هى بوقع قيمة هديتها عليه، أن يعود إليها سبب سعادته".

ركل حجرا أثناء مشيته كمن يضرب حُبه فى مقتل، ومن ثم عاد ليفكر..

"لا يهم أن تحبه حقا، المهم أن تراقب نفسها وهى تمارس شعائر حبه. لا بد أن ترى نفسها جميلة للحد الذى يجعلها مخلصة في اشتياقه، لا بد أن تبدو أمام نفسها خَيِرة إلى الحد الذى تهمل فيه محادثة حبيبها لصالح شرح بعض الأمور المنغلقة على واحد لا يعنيها أيضا".

فتح هديتها له، وأهدر وصيتها أرضا، فأطلت عليه الساعة بأسفها ووصمة سعرها الفادح، طأطأت عقاربها خجلا وجاهدت لتنصب بدقاتها حدادا، مُعلنة عن براءتها من دم

الإساءة إليه. ابتسم فوق لمعتها الأرستقراطية بحسرة، ومن ثم انتزع من جيبه هديتها كمن يخلع قلبه، ووازن ما بين الهديتين بكفتين، طبت فيهما هديتها. رمقت الساعة سواره الأنيق فى غير تكلف، السَمِح من دون المغالاة فى التجمل. فأرخت أهداب عقاربها هربا. وانتحرت فى يد صاحبها دفنا، جابت معه طرقات ومزقات، وارتفعت معه فى منحدرات، وانخسفت معه فى منهبطات، وقد سرى منه إليها نبضات احتضار، احتضار أخذت تحسب ساعاته الأولى، حتى بعد إلقائه لها فى الخرابة النائية أمس، والتى تليق حقا بقبح هذا الاحتضار الآخذ رغما عن الجميع فى التقدم بالعمر.

بريد الفراق

زوجى العزيز...

لا أتقن فن كتابة الرسائل، أقصد الخطابات. أيًا كان اسمها على أية حال، فأنا لا أنتمى إلى الثرثرة المكتوبة، وإن تخاذلت الكلمات على شفتى، تنحبس حتى الممات فى داخلى. لطالما اشتهيت الحديث، كمُحظية أدمنت النوم مع الغرباء. طالما انفرك لسانى، تحت فيض الكلمات المُعدمة سلفا. ولكنى آثرت الصمت، فالسكوت فى حضورك أكثر صدقا، هو الأقرب لبيت القصيد، والمتمم لبدر وجودنا معا فى سماءات الآخرين. بلعت بوحى، حكاياتى، وسمرى. بت نحيفة، منزوعة دسم القصص والعبث. كى أبقى على عهدى معك، كى لا تفوح رائحة احتراقات الحكى المزمن الذى يسكننى. أُلملم انفراجتى التى ما إن اتسعت هوتها، ستأكلنا جميعا. أعى أنها ليست على مقاس دنياك البسيطة. ولا أرتضى تكدير استكانة نفسك بأساطيرى المعجونة شططًا. وأعود لأتذمر بعدها، حينما تداهمنى الحقيقة ككلب هائج فى طريق معتم "إن حياتى معك لا شيء".

عِشت معك بين شفتين منغلقتين حتى وإن تبادلنا الحديث والقُبل.

أيقنت ذلك بعد مولودنا الأول. انشطرت أرض وجودنا معا فى داخلى إلى جزيرتين، إحداهما فى المحيط الهادى والأخرى فى الهندى. وضربنى إعياء السكوت. لم يعد منذ حينها حضنك يلائم علامات استفهامى، فصلاتى، وميل سطورى، شداتى، وكسراتى، هذا الجموح الأشعث الذى ألم بورقتى البيضاء البكر، التى سبق وبنت لك بيتا فوق لونها الشاهق. لم أعد أحبك من وقتها، أو اكتشفت أننى لم أحبك يوما فى حياتى. لا أعلم، ولم أجتهد فى تحضير جواب يشفى غليل أسئلتك. ما أتذكره، أننى لم أكن من يومها سعيدة. كف الفرح أن يطل علي كعادته فى مساءاتنا. والشمس أبت أن تهبنى إشراقة رائقة من مسحة الشتات. فى البداية، عنفتنى أشد تعنيفا. زهدت الفِكر. وتطوقت بأقاويل الخلق المأسورة عن الأسرة والبيت. اغتسلت بمياه العادات وتجرعتها. أنبتنى حد الأرق. غطيت عريى بظل وجودك غير المحسوب، فصّلت منه قماشة شفافة، ارتعدت وأنا أقضى ليالى المطر أمط فى مخملها النحيل، الذى يفترش نصف جسدى. وبين الصقيع والظُّلمة انحشرت أطرافى. سافر جسدى إلى أرض الغيبة. وبقيت أنا أعض على قيودى، حتى تآكلت أنيابى، وتهاوت أسنانى.

تمزعتُ كخِرقة كيّسوا بها ضآلة خيال الظل، نقرتها الطيور وكادت تأكل الهيكل المصلوب تحتها. طالما واريت عن ولدى جسدى المنصوب على الأخشاب الثلاث فى قلب العراء، رأسى المُطأطأ، وقلبى المتهتك تحت الذراعين الآلفتين لوضع

السَلسَلة. كنت أشد عودى، بينما ترتخى عُنق لى لم تعد تشرأب لترى المُقبل. بات الصخب يعلو يوما تلو الآخر، حدقة التأنيب لم تعد ترمقنى بوسع، لكنها لم تُغفل عنى تماما. شيء من الخدر تسرب إلى طعامى، شرابى، ومنامى. خدر لا يعرف السلام ولا الاستسلام، لكنه ينتمى إلى عائلة الجلبة والضجر.

وحينما حل مولودنا الثانى، كنت استحلت أنا إلى علامة تعجب كبيرة.

إشارة مستقيمة، منتصبة فوق نقطة، مشحونة بأحاسيس مختلطة ما بين السأم، والندم، الخوف، الكره، واللامبالاة. ولكن الموت والمقت، كانا أبرز مقاتلى الحلبة. نصف منى بدأ يستعد للموت، والنصف الآخر تناوب على المقت. والسموم ما بين دماء الوريدين تنز، يطفر بها ثديي ليشربها صغيرى. ولكنى حمدت المولى أنه برأ منها، ومع الحمد عادت نوبات الذنب، لبسته ثوبا، وبه اغتسلت. فقرأت على نفسى كل مواثيق الأمومة الفاضلة من جديد، ونبشت فى وجه أولادى عن سبب للحياة.

ومرت السنوات دهورا. شب فيها الولدان، وشاب الوصل بيننا. الغريب أنك لم تنتبه، تشييع جنازتى اليومية لم يكن لك بمثابة ولو حتى ذبابة رغبت بهشها عن أنفك. شعائر مواتى الدائم لم تهز عرش غفلتك. لست بصدد لومِك، أنت أبسط من أن تُلام. ولكن ما هذا إلا دليل آخر يُعزز موقف براءتى،

يشهد بأننا لم نكن سوى زيت وماء، لونين إن جمعهما فنان فى لوحة لاستقر اسمه فى قاع التاريخ.

زاولت احتراقى على جمر التخبط إلى ما بعد زواج الولدين. الثورة تنزعنى من نفسى كل ساعة، ومن ثم تهبدنى على أرض الواقع. وتُعاد الكّرة بلا نكهة لأى حلاوة يحكون أنها تصاحب النيران. حاولت الانتحار مرات، ولكن أبدا لم يخطر على بالى خيالات الفراق. كُنت أجبن من الإقدام على وداعك، من النظر لصورة المرأة المخبولة التى فارقت زوجها بعدما قضت الخصلات البيض على سواد شعرها. نعم، كنت المرأة التى تهاب أقاويل الناس لدرجة انتزاع الفكرة من رأسها. ولكنها تثق فى الله وتقع فى عرض رحمته.

ولكن فى لحظة ما انبثق الخاطر من رحم الوقت، حينما ومضت الكلمة على جبينى، كشربة ماء تلمع فى عتمة الصحراء، ولكنها بقيت كالسراب .... "المغادرة".

بزغت كشمس، على بعد بلايين الكيلو مترات، تراها عينى ولكنها لا تقوى على مسّها. تشرق كل يوم، ولكنها أميل للمغيب. لا تبقى، لا تؤانس ولا تجالس. كنت أغفو كل ليلة، وأنا أعدنى بحسم فيه خلاصى غدا. وتأتى مع الغد لعبة النرد التى مع الوقت تجاوزت التعبير المجازى إلى أمر واقع. ألقى فيه بالفعل بزهر النرد على وجهي "الذهاب" .."عدم الذهاب". وأيًّا كانت

نتيجة اللعبة، أبقى على فراشى وأنتظر الغد وهو يجىء بمزيد من احتقارى لذاتى، ولحياتنا معا.

حتى أتى هذا الصباح، يحمل لى المفاجأة كما يحملها لك.

فتحت عينى على يقين شنقت فيه الفِكر. صحوت من مواتى دفعة واحدة، وقمت من تابوتى المسحوق أسفل دوامة دفعت فيها عمرى. ارتديت ملابسى برأس فارغ، أمام خلفية أفق رحب. ملأت حقيبتى بملابس، حاجيات، وشهادة ميلاد استخرجتها لتوى بهوية جديدة. وانكفأت لأكتب لك.

لا يهم عنوان وجهتى، المهم أننى وجدت طريقا متخصرا إلى نفسى.

أحبك ولكن ليس بالقدر الكافى لكى أبقى معك.. وأكون سعيدة.

كما يقولون "تحياتى..كن بخير".

وأنتظر توثيق فراقنا الرسمى.

هو وهنّ والقرار

باتت تضيء كنور يأبى عِتق العينين. برقت أكثر من اللازم فى سماء الغرفة، وتناثرت كدقائق عمر يعرف كيف يتواطأ مع الحياة. تنشغل هى بإتمام النصف الأخير من ابتسامتها، ولكن هو لم يسعه الانتظار، فالشق الأول من انفراجة هاتين الشفتين أتى عليه تماما. شيء من انتفاضة هذا الثدى البض يوشى له باضطرابها هى الأخرى، صدرها مهتاج سرا، أنفاسها تتقافز على استحياء، يُهيأ له أنها ترغبه فى سكوت، أو هكذا يظن. لم يقف كل منهما على مساحة كافية للصراحة، لا يهم، فهو الآن سيجهز عليها ويشرب كامل حُلوها فى فمه.

لف عليها جسده، التهمها فى قُبلة. منحت له نفسها طيعة، وبادرت فى أكله. خلع عنها ملابسها بوهن من أعيته اللذة. بشرتها تنز شبقًا، يتناوله هو على مهل. يُقبّل كل سنتيمتر فيها، أناتها تغرقه، فتبدأه من حيث أنهته. يدفع به عُريها إلى حافة الجنون، يتمزع بين تأمل آياته، وبين ترويض شياطينه. رفعها فوق منضدة كانا يجلسان أمامها قبل قليل، فتح ساقيها ودفس وجهه بينهما، لعق شهدها الذى لا ينضب، مزمز الاشتعالات الرابضة هناك، الانقباضات، الانبساطات، الانتصابات. طقطق طعم عسلها فى فمه، وفرش لسانه. بينما

بلغت به آهاتها نقطة النور. انتشلها من مكانها، وحطها أرضا. دلف إلى منبت جحيمها هذه المرة، اقتحمه، وأهال عليه الضربات تباعا حتى انتحرت المسافات فيما بينهما.

وبعد الملحمة، قال وعرقهما يقطر كنذير بركان نشط ...

"حينما ستأتى، سأخبرها أننى انتهيت منها، وأنكِ امرأتى الجديدة، تجرؤين على فعلها معى؟ أم نغفل عما حدث، ونعتبره شوائب غربال مصيرها الزوال".

*****

تحولقوا حول طاولة الطعام. الغريبة على الرأس بعيدا. بينما هو وزوجته جلسا متلاصقين. يسود الجو اضطراب فوضى السُفرة المبدئية، والمتوقعة دائما. فلا أحد يعلم من أين يبدأ. صوت اصطكاك الملاعق، الأطباق، والأكواب يزيد على الارتباك درجات. وامتدادات الأيدى غير معلومة الوجهة، ترتد من وقت لآخر، مفسحة مجالا لنظيرتها كى تألف حَطّة أصناف الأطعمة. تقول هى بنبرتها المتحفزة دوما للوم:

- لماذا لم تجلب التوابل من المطبخ، كما طلبت؟

هو وبنبرة دفع معتادة لقوة صوتها الهجومية، بينما يتحرك من مجلسه فى طريقه إلى المطبخ:

- لقد غفلت، سأجلبها حالا.

تستطرد، وكأنها تذكرت لتوها شيئا يستحق أن يقال:

- بالمناسبة ستشاهدين الآن أجمل طاقم توابل قد ترينه فى حياتك، لن يجرؤ خيالك ليُحدثك عن مدى جماله حتى ترى بنفسك.

يأتى هو وفى يده شماعة الطاقم، تطل هى من قعدتها لتنشلها من يده، ومن ثم تموضعها أمام عين الغريبة، وهى تقول:

- صديقتك رفيعة الذوق كما تعلمين.

تعطيها الغريبة لمعة عين انتظرتها الصديقة، جمعت الأولى جل طاقتها ووضعتها فى انبهار قسمات صادق، أثلج صدر الثانية، ومدد بشرة وجهها لتبتسم بظفر، ومن ثم تعيد الطاقم ليد زوجها، جالسة فى نشوة قائلة:

- جلبته من أحد عروض أماكن ديكور فخمة، ولذلك لن تجدى له مثيلا أبدا.

تدلق الغريبة بعض عبارات المجاملة الصادقة، والتى شابها بعض التحفظ حيال الفقرة الاستعراضية المتباهية الفائتة. وبينما يتفانى الزوج فى افساح مكان فضفاض للطاقم المكتنز على الطاولة، يختل توازن ذراعه، لتتدحرج رغما عنه إحدى الحاويات، متخذة طريقها إلى الأرض لتتهشم مكان وقوعها، فى صمت ورقى يُشبه تفردها.

تنعق الزوجة، كغراب لئيم:

- ما الذى فعلته لتوك؟

يبادرها الزوج، متلهفا آسفا:

- آسف، انزلق من يدى رغما عنى.

تتجشأ بعض الغل:

- لقد هشمت طاقمى، يا لك من مهمل.

فى تلك اللحظة، ارتمت عين الغريبة على الزوج، وهو يربت على ظهر نبرته النمرة لتتوحش، كمن علم أنه سيحتاج إليها قبل قليل:

- لا تبدئى فى التحدث إلى هكذا، وإلا هشمت رأسك مثل حاوية طاقمك العزيز.

ترتبك الزوجة، وتقول فى نبرة توارى ارتعاشها:

- بدلا من أن تعزينى، تهددنى بالضرب!

يستطرد وهو يزيد على اشتعاله نارا:

- نعم سأقدم على ضربك، إن لم تظهرى احتراما كافيا.

هنا تدخلت الغريبة، وقد هالها سوء الوضع:

- لا شيء يستدعى كل هذا، اهدآ من فضلكما.

ألقى بقبضة صلدة فوق مفروشات السفرة، التى تقافزت منكفأة على بعضها البعض، ومن ثم غادر الغرفة كلها. رمقت

الغريبة صديقتها بنظرة لوم، فردتها لها الأخيرة مغمسة بجملة متشفية:

- هذا أفضل ما فعله اليوم.

*****

اعتادت الغريبة ألا تفكر في شعورها، فقط تفعل، ولا تُكمم فم فعلها. طالما نبشت وحدته، وكرّت خيط صمته، وهو الذى لا يخصها، ولا يعرفها، سرعان ما تدفقت كلماته سيلا يُنعشها، يَبِل شقوق سقفها العالى الذى لم يقوَ أحد على تسلقه. تسعدها إشراقته حينما تدنو منه، وتربت عليه بحديثهما الرنان ذي الوقع الموسيقى. تطوى له آفاقا لم يطأها خياله، حينما تٌجود عليه ببعض خصال منه، خلقها الله فيها. فيئتنسان بما يقتسمانه سويا من بعضهما.

تشاغبه بأنوثتها بحرص راهبة، وتعى أن نصلها ينغرس فيه بضراوة. لا تقحم عقلها فى المسألة، نارها معه تهش فكرتها وخوفها. تتمرغ فيه بسكوت، وهو يهيل ترابها فوق جسده. كلما رأت وليفته وهى جائرة عليه، تنفخ فى دفء ظِلها فوق رأسه المحموم.

- لماذا لا تأتى إلى الماء؟
- أميل لمراقبته أكثر.. أعريه على مبعدة، ولا أمنحه فرصة ليبتلعنى.
- أنت مدمن قراءة.. أليس كذلك؟

- نعم، ولكن لماذا؟
- أولا، من يقرءون دوما يجيبون على السؤال بمثله. ثانيا كلماتك فيها من هيبة الأدب.
- وأنت، تقرئين؟
- ما قولك أنت؟
- أقول أنكِ أجبتِ على السؤال بسؤال.

*****

لم تُمعن التفكير في المترتبات المحتملة لفِعلتها. تماما مثل إغفالها عن مراقبة شعوره بها ومعها. خمس سنوات قضياها كزوجين، ولم يمنحهما الزمن لحظة صفاء حقيقية. هى على ضفة، وهو على نظيرتها. يتمادى فى بُعده، من دون أن يزعق بصوته ليستغيث. وهى تجلس واضعة ساقا على أخرى، لتُلجِم ارتعاشتها، وتخفى سر عجزها عن الوقوف بثبات من الأساس.

أحيانا تزيد على غلظتها حِدة، وقتما تراه قد أضاف سنتيمترات جديدة على مسافات الفجوة الرابضة بينهما. تُقدم اللامبالاة، وتُؤخر الشغف. تُحمّى وطيس البرود، وتُسَقِع اللهفة إن وُجدِت. أحيانا تفكر أن حربها الخفية معه، هى المتعة بذاتها، تراه يعى بوجوده فى ميدان القتال؟!

أدرات قرص التليفون _بدون أن تستشيره كالمعتاد_ وطلبت من صديقتها (الغريبة) العائدة لتوها من أوروبا، أن

تقضى معهما بعض أيام انتويا السفر فيها إلى سهل حشيش بالغردقة.

تغار عليه إلى الحد الذى يدفعها لأن تضعه بيدها فى مواجهة مع ما تخافه ...

فقد حكوا لنا قديما عن البحار الذى داهمه الجن فى منتصف المحيط، فبدلا من أن يهرب منه، اندفع صوبه بجنون، ولم يشعر كيف لقى حتفه من هول سرعة بلوغه له كرفة عين.

أغلقت الهاتف، وأخبرته بما فعلت (كتحصيل حاصل). لم يبدُ منتبها، أو بدا كالمعتاد على هضم الكلام المُلِح قوله. انضمت إلى جلسته على الكنبة أمام التليفزيون، الأخبار تُثرثر، وهو يجيد الاستماع والتورط. كتفاه يبدوان محنيين بعض الشيء من الهم. والكلمات المتطايرة من فم مذيعى التوك شو تحُط على صدره، وتُمسِك أنفاسه. يخيل إليها أن ثمة دموعًا تطفر من عينيه. يُغلق التليفزيون فجأة، ويقطع جملة ضيف البرنامج "الوضع أصبح مشتعلا، ولا بد من توحيد الجبهة الوط....".

تسأله (تحصيل حاصل) بنبرة فضول:

- ما بك؟

يعتدل صوبها وكأنه انتبه لتوه إلى وجودها، ومن ثم يطرق ويدنو قرب مجلسها، يتمسح فيها بشهوة، يفيض عليها بجسده، ويقتطع أجزاء من لحمها بكفه، وكأنه يعتصرها جزءا جزءا. تتأوه، فيزيد هياجه، يرتمى عليها، يعتليها فوق الكنبة بشيء من العنف، يغيب فيه بها، وتغيب منها فيه. ولا يعى كل منهما أى شيء مما يحدث، إلا مذاق اللذة الممزوجة بدموعه وحيادِها.

*****

"لن يسعنا الشواء هنا، لا بد وأن نحضر السمك جاهزا"

قالتها الزوجة بالامتعاض الساكن دوما بين ملامحها. تطوع هو ليذهب ويبتاع الغداء، فاقتسمته الغريبة القرار، متكئة على رغبتها فى شراء بعض الحاجيات من صيدلية السوق الكبيرة، لأن الصيدلية المجاورة ليست رحبة بما فيه الكفاية للرفاهيات، وابتسمت...

انتظرا السمك على حافة الرصيف، قال فى خُبث وهو يعى أنها سَهَت عن حاجتها إلى الصيدلية، على الرغم من أنهما مرقا عليها فى طريقهما "حقا، فالرفاهيات يمكن الغناية عنها". لوهلة تعلقت بوجهه وكأنها تحاول فهم ما يرمى إليه، ومن ثم توردت قسماتها وبدت جميلة بما فيه الكفاية لعقابه، وإحانة دوره فى الإرباك. ومن ثم قالت بعتاب رقيق:

- أخطأت بالفعل، لأننى أردت أن أؤنس طريقك.

ابتسم وهو يدير دفة الموضوع، كمن يعتذر على استحياء، بينما ينظر إلى لافتة المتجر الجالسان على ناصيته:

- إن امتلكتِ متجرًا، ماذا ستطلقين عليه؟

أعادت له سؤاله ثانية:

- أنت ماذا ستطلق عليه؟

فكر مُدعيا العُمق، ومن ثم قال، مُداعبا ومُعترفا أن كل من سؤاله والإجابة التى سينطق بها غير ذات قيمة:

- سأعلق فوقه لا فتة كبيرة وأنيقة، مخطوط فوقها "اللى مايتسماش".

ضحكت، وبادرته:

- متجرك هذا أم صديقك الذى لا تطيقه.

إثر مبادلته لها الضحك، ساد الصمت ثوانٍ، فقالت فى نبرة دامعة بعض الشيء:

- قبل عشرة أعوام، حينما عدت إلى مصر مع عائلتى، كان والدى يجوب مشاويره دائما، وهو يحمل نوتة ملاحظاته وقلمه، يُدوّن غرائب أسماء المتاجر الشعبية (تنتعش نبرة صوتها) كان يعشق إيفيهاتها، ويظل يعيد على مسامعنا أنا وأخواتى أسمائها من النوتة. بينما نظل

نتأفف من فعلته، ممازحين إياه. (تصمت قليلا) وفى يوم جلست فيه وحدى معه، قبل وفاته بأسبوع تقريبا. قال لى بنبرة دافئة "كلما قابلتك لافتة متجر شعبى تدعو إلى الضحك، تذكرينى، بل اجمعهم نيابة عنى".

الشعور بالفقد ملأ ما بين كلماتها:

- لم أطق من بعد موته الحياة فى مصر، هاجرت ثانية، بينما بقيت عائلتى هنا (صمتت لبرهة) ولم أقوَ على توثيق اسم أى لافتة أيضا.

لمح دموعا تقف على حافتي جفنيها، فقال وهو يقفز بصوته بلغة سيركية متأهبة للعرض:

- تعلمت شفرة ما من قراءات دان براون، شفرة بسيطة، ولكنها أهون من الباقيات المعقدات، دعينا نُجربها الآن.

تلفت حوله، ومن ثم قام ودنا من متجر السمك، غاب داخله لبرهة، ومن ثم عاود قعدته بجانبها وبين يديه ورقة وقلم، بينما يقول وهو يُمطط الورقة المهترأة نوعا ما، ليجعلها صالحة للكتابة:

- يمكننا أن نكتب ما أردناه، ولكن نُبدل كل حرف من حروف كل كلمة، بالحرف الآتى بعدها من حروف الأبجدية، هل تعين ما أريد قوله؟

تناولت الورقة من يده، وهى تومىء بالإيجاب، بينما تبدو متفكرة متأملة وضع ما ستكتبه، وبعد دقيقة انتهت، وناولته الورقة، فرأى جملة "بمب حغبمث". انفلتت منه ضحكة وهو يقول:

- لقد علِمت أنها ستكون صعبة ولكن ليس إلى هذا الحد.

تمعن ليركز، وشبح ابتسامته يتبدل بمظهر حماسى مستغرق، ثم نظر لها وهو متيقن، بعدما فرغ من فك شفرة جملتها:

- وأنا جائع أيضا أيتها اليمامة التى حطت الأرض بعد سفر.

*****

افترشت الرمال، فردت ساقيها، وأطلقت ذراعيها. تمددت مع استفاضة البحر، تغطت بالسماء، واحتست مذاق الهواء على مهل...

انتهت من توضيب كل شيء، تنتظر عودتهما ظافرين مُزفرين بحمولة السمك. مسحت دماغها من الخيالات القريبة التى باتت تحاوطها مؤخرا، ظنونها التى بدت أقرب إلى الحقيقة، بخصوص الغائبين المجتمعين على مبعدة منها الآن. بقى شعور واحد يطرق باب لحظتها بقوة، يتبيَن فى قلبها كرؤية

قابلة للتأويل. إنها الآن وحيدة أكثر من أى وقت مضى، ولكنها أيضا راضية مطمئنة كمثل لم تكن من قبل.

فتحت صدرها لكلمات البحر، سدت الرؤية أمام عينيها بإغماضة كاملة، تنفست بانتظام..

وأخذت تتحسس دبلة زواجها، فطنت إلي بدانتها وجثومها الواقع على إصبع لا حيلة له، تقيّد بربطته مجبورا لسنوات، كى لا يبوح بعدم ملائمة وضع هذا الحُلى من فوقه. رمت نصل صنارة الذاكرة فى صور الماضى، وراحت تُنقب على هوية من اختار الخاتم، هى أم هو، أم القدر؟

*****

أسرعت كحمقاء فى فتح عينيها، لا تكاد حتى أن تُشفى من هذا الداء الغشيم، عادة الاستيقاظ فجأة كمن لدغه الفزع دون أن تقربه الكوابيس. وقد نصحها قبلا عدد من مدربى الاسترخاء الجسدى، حذروها من فعلة كهذه، مؤكدين آثارها المتوقَعة على المخ، ولكنها دوما لم تكن تجيد اكتساب العادات لكى تتفوق فى درئها، الفطرة هى ما توعزها وتوعظها، تمسح لها خطوة وترسم لها الأخرى. تضبط ساعتها البيولوجية و ....

ثمة ورقة متمددة إلى جانب رأسها، بالتأكيد قاسمتها الفراش، ولكن لكم من الوقت الله وحده يعلم. تناولتها بلهفة، حدسها ينبئها أن محتواها مُحرض على المرح، تُحب الألاعيب،

وبدا لها أنه هو الآخر يهواها، نعم إن هو بالطبع من طرح الورقة فوق وسادتها. وسّعت حدقة عينيها وطفقت تقرأ ...

"آآآه ..إنها الشفرات إياها، حسنا" همست لنفسها، ومن ثم قفزت فوق السرير، سحبت ورقة، جرّت قلمًا، ومن ثم عادت مكانها وأخذت تُبَسِط المُعقَد، فأسفر حل اللغز عن الآتى ...

*أبو علاء للمأكولات

*بيتزا الأمور

* فلفول

* سندويتش أبو مؤمن

* كازيون

* كشك المظلوم

* (جمتعهم عنكِ...

تبقى إمضاؤك ......

أُجرتى ابتسامة..............)

اجفلت، كادت أن تَدمَع ولكن الابتسامة أخجلتها وانفردت على شفتيها عنوة.

*****

أقفرت عائدة من نزولة السوق، بينما جلسا الاثنان فى استقبالها، وبعض منهما مازال عالقا على كيان الآخر. رأت منذ إدلافتها الأولى، حبيبات عرقهما وقد امتزجت على جلد كل منهما، بالرغم من قعدتهما الفارقة بمسافة، تيقنت مما حدث، وضغطت بإصبع خفي على خاتم زواجها.

قال هو، بحسم:

- اجلسى أمامنا ما نقوله..

جلست فى انصياع، واستحضرت كل ما أوتيت من قوة. خايلتها ذكرى محادثتها مع الصديقة، شيء من الشك داخل قلبها، بدا لها حقيقة إقدامها على تلك الدعوة، لم تكن إلا ذريعة لإنهاء وضعها المُهشم، والآيل آجلا أم عاجلا للسقوط.

استدرك، ملتمسا بعض التماسك، ومستغربا بعض الشيء لملامحها الموشية بالاستعداد:

- أرغب فى الانفصال، وسنتزوج أنا وهى (صمت قليلا) لم نخطط لهذا، أقسم لكِ بلحظات سعِدنا فيها.

لم تبدُ منزعجة، بل متمرغة سلاما وطمأنينة:

- وأنا الأخرى لدى اعتراف لك، لم أحبك يوما، فقط سعيت بضراوة دافعة إياك لحبى (أطرقت، ومن ثم استدركت) نعم، أظننى فعلت ذلك.

قالت الصديقة، بتعَب:

- لم أكرهك، ولكننى خُنتك رغما عنى..

بادرتها الأخرى، بنبرة محايدة:

- أسامحك، ولكنى أكرهك رغما عنى..

خيم الصمت، فانتصبت الأخيرة قائمة عن مجلسها، ومن ثم خلعت خاتم الزفاف بحركة وئيدة هينة، وكأنها تقلع جذورا متخلخلة من أرض تملكها. وضعته على الطاولة المقابلة، وتناولت حقيبتها ومضت، متخلية عن أداء مسرحى قد تستغله غيرها فى لحظة مماثلة.

غادرت وهى تعلم جيدا، أنها بصدد البحث عنها، أنها لا بد وأن تبذل مجهودا أصدق فى تحريض نفسها على حُبها، لكى يحل يوما تُخلص فيه لحب من أمامها...

خرجت وبين يديها عِزال تحررها، بينما امتلأ المكان بالداخل بعبق مُشابه، امتزج بذرات الهواء، الذى اشتماه الاثنان الباقيان، صحيح أنه بدا ممتزجا مع علقم غرابة الموقف، ولكنهما وعيا بأن غبار المعارك النقية، سرعان ما يتلاشى.

سيتجاوز ثلاثتهم ما حدث، فهو أسطورى أكثر من أن يبقى بوجع فى الذاكرة، أو بطريقة أخرى، هو أسطورى كفاية لكى يبقى بفخر فى الذاكرة. على أى حال، هو صادق، فثمة حقيقة تقول لكى نحيا بصدق لا بد وأن نرتفع بحطة قدمنا عن الأرض.

إجهاض ما بعد الولادة

(1)

الجيران يعلمون أنهما تجاذبا أطراف المناقشة اليوم، فالزعيق لم يكن يجف على لسان جُمل خناقهم الأنيقة. نبرة التحدى فى صوتهما يمكنها أن تتعرى، مبعثرة رقصات الإستربتيز فى سبيل لفت الأنظار، والإلقاء بسهم صائب فى منتصف قلب الصواب تمامًا. لم يعلما بالضبط منذ متى أضحى الأمر على هذا النحو. كيف احتالت وليمة المؤاخاة التي اتفقا أن يقتسماها سويًّا، إلى بقايا فاسدة يزهدها الذباب. فى أوقات العُزلة، يعى كل منهما أن كل شيء انتهى، والاستديو الذى طالما حلما أن يكون منبرًا يسع خطوتيهما، بدا أقرب إلى سفينة تغرق بعد أن أطبق قبطانيها على عُنقها، خامدين قدرها قبل أن يبقى أمرًا واقعًا.

"أحب أن أخبرك بأنى، حتى عند العمل، أفكر باستمرار فى خطة لتأسيس استديو، حيث نصبح به أنا وأنت، مقيمين دائمين، ونحوله ليصبح ملجأ وملاذا للأصدقاء، عندما يعرفون بأن الصراع قد نال منهم كثيرا".

تعود ذكرى هذه الكلمات على مسامع "فان جوخ" من مكان بعيد، لا يشعر أنها ذاتها التى أرسلها منذ زمن إلى صديقه "بول جوجان". ينبش بين حروفها الكريستالية على الدفء الذى كتبها به، فلا يعثر إلا على خدوش صغيرة وجرح غائر ينتوى أن يكون. لمح إمارات السخط عن وجه جوجان حينما تهدل خيط علاقتهما، ولم يتورع "فان" بالتعبير عنه فى لوحة. أبرز فيها مقعد جوجان وهو يحط على مساحة واسعة من الأرض، يكتفى بنفسه باعتداد يجارى شخص صاحبه، ويتباهى بتجاعيد بطانة قماشه وانحناءات مسنديه، تمامًا كتعقيدات جوجان المُقيدِة لانطلاقة مشروعهما. رمق جوجان لوحة فان بازدراء، وصب على ألوانها بعض من شحوب لامبالاته، ولم يتفوه بكلمة.

قبل يومين كتب فان لأخيه تيو، ليطلعه بما آلت إليه هذه العربة العرجاء الذى استقلها بإرادته مع جوجان، فقال:

> ***"إن مناقشاتنا عبارة عن كهرباء عنيفة، فأحيانا نقوم بعد المناقشة وكأن رؤوسنا متعبة مثل البطارية الكهربائية بعد إفراغ شحنتها. يجب أن أهتم بأعصابى".***

يجترأ جوجان على انتقاد أسلوب جوخ، يزاوله بالساعات ويتأستذ عليه. معترضا على تشبثه باستلهام الطبيعة رأسا. يُقارن نقله الواقعى بما ينتهجه هو من استحضار قائم على

الذاكرة. يستنزفه هذا المتعجرف، ويدفعه لأن يوقف أزمان كاملة من عمره فى الاندهاش من هذا التلميذ المستأسد، الذى لديه مقدرة مخيفة على تجعيد ورقة هويته الرخيصة تحت ثرى المكان الذى قاده إلى هنا.

يعلم أن جوجان يعد له كعكة الرحيل، ولكنه لا يقوى على تحديد موعد نضوجها ووضعها على عتبات الوداع الأخير على ما يظن. يرتعد كغصن نحيل فى ليلة شتاء. فقد اعتاد وجود هذا الأرعن على الرغم من كل شيء. اقتسمه مع كسرة الخبز الناشفة، غمسه مع شُح العيش، وهيُج بصخبه فحيح الخوف. ثمة إظلامه تقف على مبعدة، تحدق فى داخله وتتوعد. يستعيد عتمة ظِلها منذ الصغر، ويتيقن من أنها تُخفى أنيابا متحفزة أسفل ثوبها الأسود.

(2)

صباح مُثقل بالمخاض. فعملية الولادة المأمولة تعاود الكرة وكأن شيئا لم يكن. لتبدو شبيهة بالإجهاض، كلاهما يحمل نفس القسمات طالما انتهجا السكة نفسها. وجهان لعملة واحدة، فقدت ألقها القديم فى الدوران، ليضحي التفافها متعبا متبلدا، الشيب يطفر من حلقاته المُتَخيَلة. فهذا البيت الأصفر الذى تهندم ليصير عنوانا لحُلم يحرض على العيش، الآن يبدو أقرب لبركة من الضحالة.

قفز المنحنى إلى الوحل، ووارى من خلفه خط وجوده. الآن وجب على فان أن يبنى حُلما آخر، ومعه منزلا آخر بعيدا عن كل هذا الكوم من الأنقاض. عليه أن يتنصل من جهده القديم فى رفع سقف توقع خائب لم يجلب له سوى، لونا رماديا من الموت.

داخلته رغبة ضارية فى أن يهرب إلى الخارج. ينبش عن حياة خنقتها هذه الجدران. حَمل معه أدواته، وسَكب كثيرا من الأفكار التى علا منسوبها فى رأسه. وخلّف وراءه جثة جوجان تتحرك بخطوات تدعس وجه العالم، وتبحث عن شيء ما لم يهتم هو بمعرفته.

لمح أطراف شِبه غابة تربض فى أفق ليس بعيد، مضى إليها وهو يكابد عناء حَمل حاجياته بهيكل مقصف، كورقة شجرة فى طريقها إلى الجفاف. حط على أول أرض انتمت إلى هذا التكوين المائل للخضرة. وطفق يعد حاجياته للانتصاب أمام وجه هذا الجمال. يهاب قطعة القماش البيضاء، يجرى عليها بالفرشاة ليُطفئ شهيقها الفاتح المتربص به، يضرب خطوطا متعرجة، عشوائية المنبت وعقلانية المغزى. تُسَمِى ارتعاشته الداخلية بفوضى مساهمة فى خلقه من جديد.

صب تركيزه على أحد الشجيرات، التى فردت جذعها جناحا للطيران. ومن ثم، أتاه صوتا خفيا، وقع أقدام وئيد يدق على سكون عزلته، و يُوقِف حفيف الوريقات المعلقة على

الأغصان. التفت، ذارعا المكان بعين يقظة، فلم يجد أحدا. فعاد بين أحضان ذراعى عمله تارة أخرى، إلى أن داهمته بقعة العتمة الكبيرة من فوق مجلسه، ها إذا، إنه ذلك الضخم الذى يتتبع خطاه. كان متأكدا من أنه سيتلصص على سر مجيئة إلى هنا، بسخافات التخفى إياها التى اعتاد عليها منذ القِدم. ألم يعِ هذا الأحمق أنه مكشوف كسماء تعرت بإشراقة الشمس. لم يعد يفزعه العلم بوجوده، وإنما يكدر صفوه. انخرست الخواطر داخل دماغه المزحوم، وبدا الصمت وكأنه موت، ومن ثم رن الحسم بصوت له صدى: "لا، بل أخشى وجود هذا الكيان المجهول، الذى لا أعلم لماذا يتبعنى".

عاد إلى المنزل ولوحته تحت إبطه. دلف، فوجد الغريم يجلس إلى جانب المدفأة. ألقى التحية وفرش أشياءه، نافضا ثقلها عن كتفيه، وأخذ يزاول طقوس عودته ببال مُلطخ غربة. وقعت عين جوجان على طرف الشجرة المُعلق على جدار اللوحة التى سوف تكون. فقال بصوت تسع نبرته أوزان ثقيلة من التحدى:

- ها أنت تعود لكلاسيكيتك السقيمة.

اعتدل فان، وضع عين يرفها الإعياء داخل صدر جوجان، وصمت.

عاود جوجان، حديثه المخضب سخرية:

- لقد وجدت لك سلة من البصل، يمكنها أن تبث فيك إغواءً كافيا لترسمها.

قبض فان على ذراعه الذى بدأ يرتعش بغرابة، كمن يقبض على سمكة تنازع الموت. واقترب فى حدة صقر حتى بلغ من وجه جوجان طرف منخاره، وقال في نبرة متجشأة حقدًا:

- اسمع يا هذا، إن لم تبل لسانك مع لوحاتك وتبلعهما معا، سأقتلك.

اتسعت حدقة عين فان، أرست شباكها الغليظة فوق بؤبؤ عين جوجان تماما، وأبدت مقدرتها على الركود هناك لأجل غير مسمى. تسمر جوجان فى مكانه، حملق فى قسمات فان التى لم يعهدها من قبل بوجهه، راقب سيل الدماء من بين فكيها، والسهام النافرة من بين أسنانها. فرسم جسده خطوة واسعة على الناحية الأخرى، واندق من دون كلمة واحدة فوق مقعده الأثير. وبعدما دخل فان لينام، وزع جوجان صولاته وجولاته على أروقة المنزل، ذهابا وإيابا. "إنه مجنون لا محالة" أبقى على ترديدها بين صوت هامس وآخر منزوع النبرة. وفى الصباح آثر أن يلملم شتاته من فوق المقاعد وعتبات الأبواب والطاولات، ويرحل بلا عودة.

(3)

كوّم لقيمات فطاره وقبرها بين فكيه، أهال عليهم لعابه وهو يرمق اللاشيء. أقرب وأبعد فكرة إلى ذهنه هي رحيل جوجان. وعى منذ قليل على صفقة الباب وهى تعوى كبوق سفينة مغادرة إلى الأبد. لم يتجاذب أطراف الحديث مع نفسه، وشغلها بإعداد شطيرة جالسا ليأكلها بذهن ممسوح كذاكرة إليكترونية سحف إليها التلف.

هبت بقعة الظل على جلسته، غيمت وضعه العالق بين عالمين. عاوده شبحه القديم بنية الإقامة إلى أجل غير مسمى. قرر أن يزعق فيه بجرأة هذه المرة، يبخ فى وجهه المتخفى نزيف الصمت المشحون الذى أغدق داخله.

- من أنت يا هذا ؟؟؟
- ....
- يجدر بك، أن تخاف منى

تنصت لدقة أقدام الضيف الثقيلة، والحافرة باستماتة لحضورها المهيب. شيء ما خلف جلسته ارتج، ووقع على الأرض متحطما لشذرات زجاجية، شرهة ومسنونة. أرسل إليها عينيه، وتملاها كمن خُلق ليراقب بعثرتها ومن ثم يموت. تموضع دهورا وهو يقلبها بنظره. منزرعا أمامها كإله لا يرفع نظره عن الأرض. مضت أكثر من ساعة وهو يراقبها كحياة وقعت من جيب عمره، لم يكن يعى بوجودها.

وفجأة أطلق صرخة ابتهلت لها السماء من أجله. حولق جسده والتصق بجدار قريب من وقفته التى خارت. ملأ أرجاء المكان بالنحيب. ألحفت الدموع وجهه، فشدت قسماته بخيط وإبرة كمفرش دميم. فبدا كمنحوتة باردة جف قلب صانعها.

- أرجوك ترأف..

قالها وهو يبكى. لم تفلح توسلاته. دنا منه المُقتحِم بغرض مهاجمته، فغافله وهرع إلى الجهة المنافية. مر على المرآة فارتأى نفسه كفريسة تتفلت من قدر محتوم. مرق على ذهنه كيف يعاف الغول، صيده المجروح، المتمرغ دما. فتناول سكين إفطاره، وقطع شحمة أذنه فى لمحة كالبرق.

تناثرت قطرات الدماء، على ثيابه وخطواته التى هدأت نوعا ما. استمع إلى تأففات غوله المزعوم وكأنها تنذر بانتهاء الجولة. ذهب إلى فراشه، وهو قابض على أذنه المبتور بداخل كفه، كروح تأبى مفارقة جسد. أقبل على النوم، وأجفل جفون عينيه فعليا، بذهن رائق ونية صافية في الإرتيارح. ومن ثم انتبه إلى ما بين أنامله من لحم رقيق معجون بسيل أحمر اللون. فانتصب قائما، وأودع نظره فيما بين منتصف كفه، وبقى على وضعه التخشبى لأزمان، ومن ثم أدرك، أن هذا الشيء الذى يحمله فى باطن يده سيعيق رغبته فى النوم. فقصد باب البيت وفتحه، بعدما انتعل حذاءه ومعطفه، وخرج إلى الشارع آخذا

فى التفرس بالمارة. وفى وقت ما من هذا اليوم، استوقف سيدة، ووضع فى يدها شحمة أذنه، قائلا:

- سيدتى أرغب فى أن تحملى هذا الشيء عنى، لأنه يؤرق نومى.

ووولاها ظهره، عائدا إلى البيت ومستعذبا ملمس الوسادة أسفل رأسه الفارغ كحصالة جيب.

---

*مقتطفات الرسائل حقيقية، من سطور مراسلات "فان جوخ" لأخيه، ولجوجان.

الفهرس

أوراق رسمية 3

وصول غير معلن 15

الفراش دومًا لثلاثة 37

شروق مُحتمل 41

دنيا أو ما شابه ذلك 51

زفافنا الذى لم يكن 65

على غرار حظ "كيسلوفسكى" الأعمى 83

فانيليا 91

عيون محدقة على نصف اتساعها 95

الساعات الأولى من الاحتضار 117

بريد الفراق 127

هو وهنّ والقرار 133

إجهاض ما بعد الولادة 149